رواية للشباب من الخيال العلمي

إجـــازة في المريـــخ

لينـــا كيـــلاني

دار الحياة

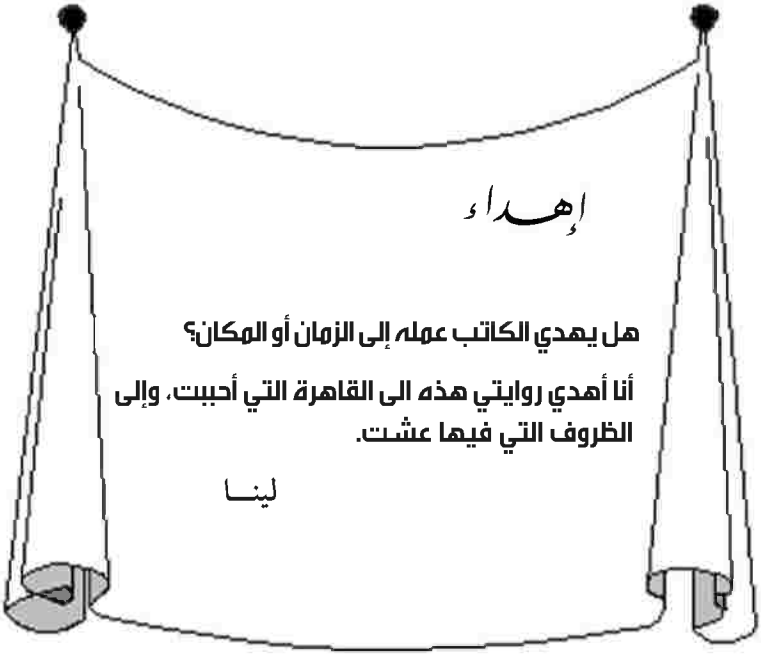

إهداء

هل يهدي الكاتب عمله إلى الزمان أو المكان؟

أنا أهدي روايتي هذه الى القاهرة التي أحببت، وإلى الظروف التي فيها عشت.

لينـا

مقدمة

المعلومات العلمية هي دقيقة من مصادرها، أما التجربة فهي من الخيال العلمي لأن المريخ لم تطأه قدم إنسان بعد، وما عاش تجربة هذه الرواية أحد.

الفهرس

• **الفصل الأول** : أحلام أم أوهام؟ ٩

• **الفصل الثاني** : فضاء غير متوقع ٢٣

• **الفصل الثالث** : نجوم في القلوب ٣٩

• **الفصل الرابع** : قطعة من المريخ على الأرض ٦٥

• **الفصل الخامس** : إجازة في المريخ ٨٣

الفصل الأول

«أحلام أم أوهام»

لم أكن لأصدق ما أراه أو أسمعه عندما اهتزت شاشات العالم، وأمواج الإذاعات تعلن أن مركبة فضائية متطورة سوف تنطلق إلى المريخ في رحلة استكشافية جديدة للكوكب الأحمر.

التمعت شاشة الكمبيوتر الصغير في زاوية غرفتي بسيل من المعلومات عندما فتحت صفحات شبكة المعلومات لأعرف المزيد عن تلك الرحلات. كنت مراهقاً في السادسة عشر، وكنت أضطرب أمام كل معلومة جديدة أعثر عليها فتتسارع نبضات قلبي، وترتجف يدي فوق جهاز الكمبيوتر. فأنا لطالما اهتممت منذ صغري بالكمبيوترات وبشبكة الإنترنت، وأنا أتابع بشغف الأجيال المتعاقبة من ذلك الجهاز الإلكتروني، وأقرأ كل شيء عنها، وأجهد لأن أطور معلوماتي حولها.

في ذلك اليوم كنت على موعد مع أبي لزيارة أكبر معرض لأجهزة الكمبيوتر يقام في المدينة. لم يكن أبي ليقف في وجه ولعي بالكمبيوتر.. بل على العكس كان يشجعني حتى ولو

كلفه ذلك أن يدفع مبالغ كبيرة.. ولم أشعر يوماً أنني لا أستحق هذا التشجيع منه، أو أنه يساير رغبات مندفعة لفتى مراهق.

جاء صوت أبي من بعيد يكسر ذهولي أمام ما أتابعه على شاشة الكمبيوتر:

- فارس.. ألم تتهيأ بعد؟.. هيا السيارة بانتظارنا.

أدركت على الفور أنني ما أزال بثياب المنزل فقفزت مسرعاً لأفتح الخزانة وأرتدي أول قطعة تقع تحت يدي، دون أن أنتبه لتناسق ثيابي كما أفعل دوماً، وخرجت من غرفتي مندفعاً.

وما أن هبطت بضع درجات من سلم الطابق الثاني للفيللا التي نقطنها حتى تذكرت جهاز الكمبيوتر الشخصي الصغير والذي اعتدت أن اصطحبه معي باستمرار. عاد صوت أبي يلح في استعجالي غاضباً:

- فارس.. ألن ننتهي من عادة تأخرك هذه كلما أردنا الخروج من المنزل؟!

وخلال ثوانٍ كنت أجلس قربه في المقعد الخلفي للسيارة التي يقودها سائق أنيق أمضى في خدمتنا عشر سنوات لم ينس في يوم أن يقود دون قفازاته البيضاء النظيفة. وكنت أنقّل بصري بين المسافة التي تقطعها السيارة بسرعة وبين جهازي الكمبيوتري القابع الى جانبي مثل كلب وفيّ، وأتمنى لو أنني لا أخسر هذا الوقت فأتابع على جهازي الصغير ما أعثر عليه من أخبار عن الكوكب الأحمر. فالخبر عن المريخ بالذات لا يثير اهتمامي فقط بل عطشي الى المعرفة.. لماذا يا ترى؟.. هل لأنني جمعت معلومات كثيرة حوله أو لأنني سمعت عنه في أخبار الفضاء؟.. أم لأنني كما قال لي أحد أصدقاء والدي: من برج يتوافق مع كوكب المريخ.. فهل سيكون بيننا توافق أم تصادم؟ على أي حال المريخ يعني لي أمراً عظيماً.

وبينما أبي يسألني عن أمور بعيدة عما تركز عليه اهتمامي قال مصادفة:

- هل تسمع الأخبار عن المريخ؟

وأخذت أعيد عليه ما ظهر على الشاشة الصغيرة أمامي حول المريخ، لكنه لم يكن مهتماً كما هو حالي إلا أنه أدرك أن هذا الموضوع هو شاغلي.

في المعرض الكبير كان أبي يتحدث الى أصحابه من رجال الأعمال، وكنت أنا أتابع الشاشات الضخمة وهي تبث من حين لآخر أخباراً مفصلة عن المركبة الفضائية تتخللها الإعلانات عن أجهزة كمبيوتر متطورة وسريعة. ولم أكن لأتوقف مسمراً إلا عندما أسمع كلمة الكوكب الأحمر، حتى أن أبي انتبه الى أنني لم أسأل هذه المرة كعادتي عن مزايا الأجهزة الحديثة، ولم أجمع حولها النشرات وكتب الدليل بل كنت مهتماً بشيء آخر.

وعند عودتنا قال لي:

- لابد أن تعرف في الغد الكثير عن كوكبك الأحمر هذا.

ولم أدرك عندئذ ماذا كان يقصد.

في اليوم التالي أفقت على صوت أمي وهي تتحدث الى شخص غريب:

- أجل.. يمكنك أن تأخذ هذا الجهاز القديم من فوق المكتب.

تنبهت في فراشي: أي جهاز قديم.. ليس فوق مكتبي سوى الكمبيوتر فلماذا يأخذونه؟

رفعت رأسي مستكشفاً، وما لبثت أن جلست في السرير أراقب أحد العمال وهو يرتدي بذلة زرقاء يحمل جهاز الكمبيوتر ويخرج به، وهو يلتفت إليّ ويحيني تحية الصباح.

فركت عيني لأتأكد من أنني صحوت فعلاً.. فما الذي يجري؟

هل غضب أبي مني البارحة وقرر أن يعيد جهاز الكمبيوتر الى الشركة؟.. ولم تمض سوى لحظات حتى كان عامل آخر يدخل غرفتي وهو يحمل علبة ضخمة من الكرتون، ما لبث أن فتحها وأخرج منها جهاز كمبيوتر جديد، وضعه فوق المكتب وبدأ يوصل أسلاكه بمأخذ الكهرباء. وقبل أن ينتهي دخل العامل الأول وهو يبتسم ويحمل بيده علبه بلاستيكية مربعة الشكل وضعها بجانب الجهاز، وانصرف مع زميله بعد أن أشارا إليّ بالتحية وأنا ما أزال في سريري مستغرباً.

نهضت مسرعاً مستكشفاً فإذا بأصابعي تقع على الجهاز الأكثر تطوراً بين الأجهزة التي شاهدتها بالأمس، وما أن فتحت العلبة البلاستيكية حتى فاجأتني مجموعة من الإسطوانات الليزرية. ابتسمت فرحاً وأخذت أستعرضها واحدة بعد أخرى.. هذه تتحدث عن الغابات المطرية.. وتلك عن القطب الشمالي.. وهذه عن علم الفلك والنجوم.. أما هذه فعن كوكب المريخ.. والخامسة أيضاً.. والسادسة.. والسابعة...

- يا الله.. كم أنت محب وعطوف يا أبي.. وها أنت تتحرى كل ما أحبه، وأطمح اليه فتحققه لي حتى لو لم أعبّر لك عنه.

كان صديقي المقرب (سامر) يسأل عني باستمرار فلا يجدني، وظن أن شيئاً ما يشوب صداقتنا. وما أن اكتشف سر غيابي أو انقطاعي عنه حتى دخل عليّ غرفتي ذات يوم وهو يلهث ويقول:

– الى متى ستظل وأنت تسجن نفسك وراء هذا الكمبيوتر اللعين؟.. ها قد مضى يومان.. ومن قبلهما أيام وأيام وأنت مع جهازك الحبيب هذا.. ماذا جرى؟ هل هناك ما هو جديد الجديد كما تقول؟.. الإمتحانات اقتربت.. أم أنك نسيت؟ أو أنك لم تعد تعلم شيئاً سوى هذه المعلومات التي تستحضرها عن الكوكب الأحمر؟

أقول وكأنني لم أسمع شيئاً:

– لقد عثرت على مواقع جديدة على الإنترنيت.. أنا سعيد جداً.. سوف ألتقط ما أتعطش اليه من أخبار.

يرد سامر بتهكم:

– أما أنا فمتعطش الى كأس شراب بارد.. هاجمنا الصيف مبكراً هذا العام.

ثم قام الى جرس صغير فوق مكتبي المليء بالصحف، والكتب، والمجلات، وأجهزة يراها هو عجيبة، قلت:

– أعتقد أنهم بدّلوا لي العم الذي كان يلبي احتياجاتي.. هذا لا يهم.. لا يهم.

يقول سامر:

- وأنا على عكسك تماماً.. لا أريد أبداً أن يبدلوا لي تلك الفتاة الرقيقة الجميلة التي ترعاني وتخدمني.. صحيح أنها غبية.. لكنها مخلصة ولا تقصّر في شيء أطلبه منها.. نحن محظوظان يا فارس لأننا من أسر ثرية.

أجبته وأنا ما أزال أعبث بأزرار الجهاز أمامي:

- كان يمكن ألا نكون كذلك وألا يكون أهلنا من الأغنياء.. فهل هذا يمنع الطموح؟.. على أي حال أنا لا أريد أن أعتمد على ثروة أبي بل أريد أن أحقق ثروتي الخاصة في الحياة.. قد تكون في المال، أو الفكر، أو العلم.

هز سامر رأسه وهو يصغي إليّ باهتمام:

- أصبت يا فارس.. العلم هو أكبر الثروات.. ومادامت الفرصة متاحة لنا فلنستفد منها بأكبر قدر ممكن.

وما لبث أن أضاف:

- ولا تنسى أيضاً أنه تتوفر لدينا كل أسباب الرفاهية والسعادة.

التقطت كلمة سعادة فاقتربت منه، ووضعت يدي فوق رأسه، وقلت:

- السعادة هنا يا صديقي في الفكر.

رد سامر ممازحاً وهو يطلب زجاجة من الشراب عبر الهاتف:

- ولماذا لا تقول في الشِعر؟

أجبته وعيناي مثبتتان فوق شاشة الكمبيوتر:

- الفكر والشِعر لا يفترقان.. بل قل إن كلاً منهما يكمل الآخر أو هو بحاجة اليه.. لكن الفكر البشري هو العلم.. وهو التقدم.. وهو الحضارة.. ماذا أضاف الشِعر مثلاً الى تقدم البشرية منذ الفراعنة والإغريق والصينيين القدماء؟ لا شيء أكثر من إثارة المشاعر الإنسانية التي هي نفسها على توالي العصور.

قاطعني سامر:

- لأن الإنسان هو نفسه يا صديقي.. في الفرح، والحزن، والغضب، والحب، والكره، الخ...

تحمست وقلت:

– ربما.. لكن الإنسان ليس نفسه في مقياس التطور والتقدم.. أين إنسان هذا العصر من الإنسان البدائي الذي كان يعيش في الكهوف ويقدح الحجر أو الخشب ليوقد النار؟

قال سامر بغيظ:

– لا تُعد عليّ معزوفتك الحضارية هذه.. فأنا أعرفها.. وقادر كما تقول أنت أن أسمعها بل وأراها لو عدت الى أي قرص في أي جهاز كمبيوتر.. أنا أقصد الحياة.. نبض الحياة والإحساس بها.. فهل تقارن مثلاً متعتك وأنت ترى على الشاشة متحف ما، أو مدينة، أو آثاراً، أو غابة، أو حتى زهرة بمتعة إحساسك بها وأنت معها تعيش جوها وتشم رائحتها أو تلامسها؟

همست لنفسي:

– أجل.. ومن يتخيل نفسه فوق أحد الكواكب ليس كمن يكون فعلاً هناك.

تساءل سامر:

– ماذا تقول يا فارس؟

وما لبثت أن قطعت الحوار بيننا قائلاً:

– اسمع يا صديقي.. أنا الآن مشغول جداً.. ولا وقت لدي لهذه النقاشات. انصرف عني أرجوك.. هذا بعد أن تشرب العصير كله.

يقول سامر:

– والإمتحانات التي نبهتك إليها فور وصولي؟.. لعلك لم تسمعني فقد كنت مشغولاً بمعلوماتك الهامة التي تسطع أمامك على شاشة جهازك الحضاري هذا وأنت تعيش أحلام المريخ.. إياك أن تظن أنك ستذهب اليه يوماً.

قلت متحدياً:

– أما الإمتحانات فلا تقلق من أجلي بشأنها.. أنا أستوعب كل المواد الدراسية لهذا العام.. وسوف أنجح.. وبتفوق أيضاً. لا تكن مثل والديّ اللذين لا يتركان فرصة إلا ويحذراني من العواقب.. وأنا منذ ثلاث سنين رغم انشغالي بالكمبيوتر أنجح بتفوق والتجربة أكبر برهان.. أما أحلامي فدعها لي أرجوك.

يبدو سامر مغتاظاً.. فينهض من فوق الكرسي الطويل المريح، ويخرج بسرعة، ويصفق الباب وراءه بعنف بينما كان صوتي يلاحقه:

- لا تنس اجتماعنا في النادي مساءً.. في قاعة الحواسيب.. إياك أن تنس.

الفصل الثانى

«فضـــاء غيـر متوقـــع»

ما إن كانت عقارب الساعة تشير الى الخامسة مساءً حتى كنت أسير في الشارع الموازي لمنزلنا متجها نحو النادي الذي يأخذ مكاناً له على الناصية المقابلة. كان يوماً حاراً على غير العادة لمثل هذا الوقت من السنة.. وكانت أشعة الشمس تُسقط لهيبها فوق إسفلت الطريق، وفوق رأسي.. وكل شيء من حولي.. حتى أنني أخذت أسرع الخطى لأفلت من تحد حرارتها وكأنني في فرن تحاصرني فيه ألسنة اللهب من كل جانب.

وصلت الى قاعة الحاسوب لاهثاً واستقبلتني بترحاب موجة من الرطوبة الباردة اللذيذة، فبعثت خدراً خفيفاً في أنحاء جسمي.. ارتميت فوق أول مقعد صادفته. وما أن انتعشت من جديد حتى جلت بنظري في أرجاء المكان فلم أجد أحداً من رفاقي الذين اعتدت أن ألتقي بهم هنا، حتى (سامر) لم يكن قد أتى بعد وهو الذي يسبقني دوماً الى أي موعد نتفق عليه.. لعله الحر الشديد في الخارج، أم أنني جئت مبكراً بعض الشيء؟

نظرت الى ساعتي فاسترعى انتباهي شخص يجلس وراء أحد الكمبيوترات، وهو يحرك أصابعه فوق لوحة المفاتيح كأنه عازف يستغرق في البحث عن لحن لم يُعرف من قبل. وشعرت كأن موجة مغناطيسية تسحبني نحوه، ولم أجد نفسي إلا وأنا أقف أمامه وأراقب ما يقلبه من صفحات عبر الانترنيت. وقفت بجانبه بعض الوقت، ولم ينتبه إليّ إلا عندما صرخت قائلاً:

– ابق هنا لا تقلب الصفحة أرجوك.. فهذه المعلومات لم أطلع على مثلها من قبل.

تنبه لوجودي ورفع رأسه نحوي وهو يدفع نظارته الرهيفة للوراء وقد بدا مندهشاً:

– هيه.. ماذا.. من أنت؟

أجبته مرتبكاً:

– عفواً يا سيدي.. فقد جذبني ما كنتَ تبحث عنه.. ولعلي تطفلت عليك.

ابتسم الرجل وهو يتفحصني فبادرته وأنا أمد يدي لمصافحته:

- ما رأيك أن نتعارف؟.. اسمي فارس.. وأنا طالب في المرحلة الثانوية.. ولي اهتمامات كبيرة في الكمبيوتر والانترنيت.

مد يده إليّ بهدوء:

ـ وأنا سهيل.. هل تعرف ما معنى سهيل؟

شعرت بارتياح، وقلت على الفور:

ـ أوتظنه سؤالاً صعباً؟.. (سهيل) هو نجم في السماء.. فهل أنت نجم كذلك؟

ضحك ضحكة عميقة وسحب كرسياً قريباً منه، وأشار إليّ أن أجلس، فجلست، وقد أصبحت الآن مهتماً به أكثر من اهتمامي بالجهاز الذي أمامه.

أجاب:

ـ بل أنا أدرس النجوم وأحلم أن أكون بينها.

شهقت متفاجئاً:

ـ هل أنت فلكي؟

أجاب:

ـ أنا عالم فلك.

قفزت من كرسيّ وأنا أقول بصوتٍ عالٍ:

ـ يا لها من مصادفة رائعة أن ألتقي بك.. خاصة وأنك عالم شاب.

سأل باستغراب:

ـ وهل أنت مهتم بأمور الكواكب والنجوم؟

أجبت متحمساً:

ـ أجل.. أجل.. فقد قرأت الكثير عنها في الكتب، والصحف، وعبر صفحات الإنترنيت، واسطوانات الكمبيوتر.. ولكن أكثر ما يثير اهتمامي هو ذلك الكوكب الأحمر الغامض لاسيما وأنه يُفشل أغلب محاولات العلماء لاكتشافه ومعرفة أسراره.

قال:

ـ ولكن الرحلة الاستكشافية الأخيرة عادت على العلماء بالكثير الكثير من المعلومات الجديدة والهامة.

قلت:

ـ أعلم كل ذلك وقد تابعتها باهتمام كبير أيضاً.

قال:

ـ أنا مسرور أن أرى يافعاً مثلك يبحث في مثل هذه الأمور.

وفجأة انقطع حديثنا عندما دخلت مجموعة من الشبان والفتيات لم أعتد رؤيتهم هنا من قبل. علت أصواتهم وهي تبث الحيوية في أرجاء المكان، وتقدم منا أحدهم وألقى التحية، وبادر العالِم يقول له وهو ينظر الى ساعته:

– ها قد جئناك في الوقت المحدد بعد أن اكتملت المجموعة.

وما لبث أن التفتَ نحوي متسائلاً وكأنه يستغرب وجودي بينهم:

– هل أنت طالب جديد؟

لم أفهم ماذا يقصد، هز العالم رأسه كما لو انه يوافق على أمرٍ ما، وقال للشاب:

– هذا ممكن.. اسأله لو أراد الانضمام إلينا.

واتجه العالِم نحو المجموعة التي تحلّق أفرادها حوله وهم يسألونه ويطلعونه على خرائط وأوراق. قلت:

- ما الأمر؟.. أنا لم أفهم شيئاً!

قال الشاب:

- أنت إذن غريب عنا.. على أي حال نحن مجموعة من الطلاب بعض منا في الجامعة، ومنا من هم في المرحلة الثانوية، قد أنشأنا جمعية تضم في عضويتها كل من يهتم برصد النجوم والظواهر الكونية، وعلوم الفلك، ويشرف علينا الدكتور (سهيل)، وهو عالِم معروف حتى أن بعضنا ونتيجة لنشاطات الجمعية اختار هذا العلم ليتخصص به، فهل ترغب في أن تنضم إلينا؟

أخذتُ أصفّق فرحاً، وقلت:

- هذا عظيم.. بل رائع.. طبعاً.. طبعاً أود أن أنضم إليكم.

تابع يقول:

ـ إذن يمكنك أن تبدأ الآن وتشارك في رحلة اليوم لرصد إحدى الظواهر الفلكية عند قمة الجبل. انتبه سوف نعود مع شروق الشمس.

لم أعرف كيف أجيب فأخذت أهز رأسي موافقاً، لقد كانت مفاجأة بالنسبة لي، واستبدت بي حماسة من نوع غريب واندفاع لا يقاوم. مددت يدي الى جيبي الصغير وأخرجت هاتفي المحمول لأعلم والديّ بأنني لن أرجع الليلة الى البيت، ولما لم أجدهما اكتفيت بأن تركت لهما رسالة صوتية أخبرهما بأنني في رحلة علمية استكشافية مفاجئة.

❋ ❋ ❋

عند قمة أحد الجبال المحيطة بالمدينة كان يقف جهاز تلسكوب كبير يرتكز على ثلاث قوائم بينما ارتفعت عدسته للأعلى وكأنه طائر عملاق فزِع يغرس أقدامه في الأرض ويرفع رأسه نحو السماء.

تلك الليلة لم تكن بالنسبة لي كباقي الليالي.. أو على الأقل هذا ما كنت أشعر به. كانت السماء من فوقنا تبدو أكثر صفاءً وكأنما النجوم أخذت تلتمع ببريق غير اعتيادي، وكنت بين أفراد المجموعة الخمسة عشر كما لو أنني منهم فعلاً، أو

كأنني اعتدت مثل هذه الرحلات العلمية، بينما كانت هذه هي المرة الأولى لي التي أحتك بها بعالَم مما أحب خارج العالَم الإفتراضي الذي تعودت أن أعيشه من خلال جهاز الكمبيوتر، أو اسطوانات البعد الثالث كما لو أن المشهد أمامي فعلاً، أو كما لو أنني أنا فيه.. أما هذه التجربة فكانت مختلفة تماماً.. صحيح أن الواقع شيء حقيقي بينما الخيال شيء لا أقول إنه وهمي بل كأنه مقطوف من حلم مصنّع.. ولكن لولا هذا الخيال أما كان الواقع كطائر مقصوص الجناحين؟

استغرقت في أفكاري تلك بينما كانت المجموعة من حولي تهيئ المكان لرصد ظاهرة خسوف القمر، فتزرع الكاميرات المتخصصة في مختلف الزوايا.. وانتشرت الأوراق والخرائط فوق الأرض، وأخذ بعضهم يحدد موقع الأرض في تلك اللحظات، بينما انهمك العالِم بمعادلة رياضية يحسب فيها بعد الأرض عن الشمس، وبعد القمر عنها، وخطوط العرض والطول، وأفضل الزوايا لرؤية واضحة لما سنشاهده في ليلة كانت بالنسبة لي أكثر من عجائبية.

أخذ كل فرد في الفريق مكانه وهو يعرف مهمته بالضبط، وما يجب أن يقوم به. وقف العالِم وراء التلسكوب وأخذ يضبط عدسته وزاويته، بينما سطع القمر بضياءٍ شعرت معه أنه

يغمر العالم بأسره. فهل يمكن أن ينطفئ هذا الضياء ولو لوقت قصير؟!!

لم أصدق أنني سأرى ذلك فعلاً.. وأخذ قلبي يخفق.. وعرق خفيف يقطر فوق جبهتي.. وأنا أردد لنفسي: بل إن هذا يحصل فعلاً ولو أنه لا يتكرر دوماً.. ولكنه يحدث.

نظر العلم ملياً في التلسكوب ثم عاد ليدرس الخرائط والأوراق التي هيئتها له المجموعة.. ونظر الى ساعته ثم التفت إلينا، وقال:

ـ هيا ليأخذ كل منكم موقعه النهائي فسوف يبدأ الخسوف بعد لحظات. دوّنوا كل ملاحظاتكم وأنتم تعرفون كيف نبدأ الدور من يمين التلسكوب لتتقدموا تباعاً وبسرعة بحيث تتاح الفرصة لكل واحد أن يرى عبره جميع مراحل الخسوف.

وفجأة تنبه العالم لوجودي وكأنه قد نسيني من قبل بينما كنت أقف وحدي كالتائه بينهم، أو كحالم يستحم بضوء القمر، قال لي:

ـ تعال يا فارس وقف هنا وراء المنظار المكبّر لتكون أول من يشاهد ظاهرة الليلة.

شعرت بفرح مفاجئ يغمرني، واندفعت أنفذ تعليماته.. وما هي إلا لحظات حتى قال لي:

ـ أنظر ملياً الآن عبر التلسكوب فها قد ابتدأ خسوف القمر.

سرت رهبة في جسدي، وما إن نظرت الى وجه القمر وقد بدأ الظلام يغمر أجزاء منه حتى تملكني إحساس غامض وغريب بأن جزءاً من ذاتي قد سكن فوق هذا الكوكب المشرق بالضياء وكأنه وجه طفولي يضحك لي باستمرار.

اقترب العالِم مني وأنا مستغرق في مشهد الخسوف كأنما ينبهني بلطف أن أعطي الدور لغيري من أفراد المجموعة، وما لبث أن قال:

ـ هل تمليت في تفاصيل وجه القمر؟

أجبته وأنا ما أزال مثبتاً نظري فوق التلسكوب:

ـ أجل.. أجل.. فالمشهد أمامي لا حد لتنوعه وغناه.

ضحك العالم وقال:

ـ ولا تنسى أن ما تراه الآن يتوقف على زاوية سقوط أشعة الشمس على منطقة المراقبة، وهذا ما تحدده أنامل العالِم العارف.

ضحكنا معاً وتركت مكاني بينما اقترب غيري للمراقبة. وانفردت بالعالِم أحدثه، ويسألني:

ـ هل تعرف يا فارس أن للقمر بحاراً ولو أنها من غير ماء.

قلت:

- بل أعرف أكثر من ذلك أيها العالِم.

رفعت رأسي للسماء وأنا أنظر للقمر وقد بدا خسوفه واضحاً، وبدأت أعدد أسماء البحار وكأنني أراها بالعين المجردة، أو لعل ذاكرتي البصرية كانت تسعفني بملامح مما رأيته في الصور، والكتب، والأفلام:

ـ أنظر هنا بحر الأمطار.. وقريباً منه بحر الصفاء.. بحران مستديران بدون مياه، وبجوارهما بحر السكون.. أما ذاك فهو بحر الأزمات، قريب من حافة القمر وأصغر من سابقيه، وكأن هذه البحار تحكي قصة الحياة.. تنتقل من الماء والصفاء الى السكون، ثم تنفجر الأزمة وسط محيط العواصف.

التفت الى العالم فوجدته ينظر إلي مشدوهاً، قال:

– ما هذا الذي أسمعه منك يا فارس.. هل أنت باحث أم شاعر؟

تابعت أقول:

– أشعر أيها العالم سهيل أن كوكب القمر هذا الذي تحدث عنه (غاليليو)، والذي هو الأقرب الى أرضنا، رغم انه لا يدير دائماً جهته النيرة نحونا في الحد الفاصل بين الوجه النهاري والوجه الليلي، ورغم أن عالمه ليس عالماً مضيافاً لنا تبعاً لدرجات حرارته المرتفعة جداً نهاراً والمنخفضة ليلاً.. أشعر أنه أكثر إخلاصا لكوكبنا من باقي الكواكب، وهو الذي يحتفظ بوجه واحد يتجه به دوماً نحو الأرض، يخفي وجهه الآخر المندّب بالفوهات والمجدب، بينما أوقعته الأرض في الأسر وجعلته تابعاً لها.

نظر إليّ نظرة عميقة، وقال:

ـ أنت فنان حقيقي يا فارس..

صمتُّ وصمتَ العالِم، وتم خسوف كلي للقمر غاب معه الضياء، ووجدتني والجميع يرفع رأسه نحو السماء فوق

قمة ذلك الجبل أقف وكأنني في طقس بدائي فوق قمة العالَم، ومشاعري أقرب الى السماء منها الى الأرض.

أخذ الخسوف ينحسر ويعود القمر كما كان.. وأفراد المجموعة منهمكون في تدوين ملاحظاتهم، والتقاط الصور وهم فرحون سعداء، يعملون بإيقاع واحد كفرقة سيمفونية يقودها العالِم الشاب ببراعة.

وعندما انتهت الرحلة وعدنا مع خيوط الفجر الأولى جلس العالم بقربي في مقعد الحافلة بعد أن طلب من السائق أن يوصلني الى المنزل قبل الآخرين. تبادلنا العناوين وأرقام الهواتف، وكان يتساءل كيف أنني لم أهتم كثيراً لظاهرة الخسوف تحديداً، وكنت أجيبه بأنها ظاهرة طبيعية معروفة، ليست أكثر من وقوع الأرض في مدارها بين الشمس والقمر، وانعكاس ظلها فوقه مما يحجب أشعة الشمس عنه لفترة قصيرة.. وأنني كنت أقفز بخيالي الى عوالم بعيدة ومجهولة.

ولم أكن أعرف أن تلك الليلة كانت ستغير مجرى حياتي كلها.

في المنزل قابلني غضب أبي وأمي لغيابي الليلي المفاجئ وكأنه حالة من العصيان والتمرد لا مبرر لها. ولما كنت متعباً

ومشاعري كالزجاج، وأعصابي تهتز مشحونة فقد آثرت الصمت، واعتذرت عن القلق الذي سببته لهما عن غير قصد، وانسحبت بهدوء الى غرفتي بعد أن قررت أن أخبرهما بكل ما جرى معي في اليوم التالي.

الفصل الثالث

«نجـوم فـي القلــوب»

العطلة الصيفية بدأت بعد أن اجتزت امتحاناتي الدراسية بنجاح. كانت الأسرة تخطط لإجازة نمضيها معاً في إحدى المدن الساحلية، فالبحر جميل وشواطئنا تزخر بالقرى السياحية المهيأة لقضاء أجمل أوقات الصيف.

اعترضت أختي وطلبت من والدي أن يسمح لها بالسفر لقضاء إجازتها عند خالتي في كندا. ولما كانت الابنة الوحيدة للأسرة، والمدللة طبعاً فقد وافق والدي على سفرها بعد أن نمضي جزءاً من الإجازة معاً، خاصة وأنه يخطط لسفر طويل الى جنوب أفريقيا يتابع فيه أمور تجارته وأعماله.

وكنت أداعبها وأقول لها :

ـ هل ستتركيننا يا دالية هنا في حر الصيف ولهيبه وتذهبين الى حيث الغابات الرطبة الخضراء التي تشرب من ثلوج القطب؟

فتضحك وتقول لي :

ـ تستطيع أن تلحق بي لو أردت.. أو أنني أستطيع أن آخذك معي.. ألست أخي الأصغر؟

فأقول :

ـ ولكن سماء كندا لن تكون بصفاء سماء بلادنا، فالغيوم لا تفارقها أبداً.

وترد :

ـ وهل نسيت أننا في فصل الصيف وهو واحد في هذه الأجزاء من الكرة الأرضية؟

كنت أحاول أن أستدرجها في الحديث وأنا أعرف سبب رغبتها في ذلك السفر طالما أن خالتي تحبها، وتعتبرها كابنة لها، وتحلم بأن تكون عروساً لابنها الأكبر الذي مازال يتابع تخصصه العالي في مجال طب العيون في إحدى العواصم الأوروبية.. ودالية لا تمانع في ذلك وترغب أن تعيش في بلاد باردة.

سمعت جرس المنزل يقرع، فاندفعت من غرفتي مسرعاً كالسهم، وحتى أنني اصطدمت بدالية وهي تصعد السلم الى الطابق الثاني تحمل مجموعة الكتب التي اختارتها لتكون رفيقتها أثناء الإجازة، فتناثرت الكتب على درجات السلم كله. وقفت دالية تنظر إلي بغضب وهي تقول:

- ما بك تركض هكذا كعربة فقد سائقها السيطرة عليها؟

اعتذرت منها وأخذت أجمع لها الكتب المتناثرة بينما الجرس يقرع بعنف. حملت دالية كتبها وصعدت وهي مستاءة:

- أين الخادم ألا يسمع قرع الباب فيفتحه؟

كان سامر عند الباب، أحمر الوجه، يلهث والعرق يتصبب منه، وهو يحمل جهاز كمبيوتره، ومن ورائه خادم يحمل أغراضاً كثيرة. وبدا مستاءاً هو الآخر، وبدل أن يلقي علي التحية بادرني:

- ما بك يا أخي.. انتظرك بالباب كل هذا الوقت لتفتح وأنت تعلم بقدومي؟!

واندفع للداخل وهو يثرثر مع نفسه: هل هبطتَ من المريخ لتستغرق كل هذا الوقت؟

تناولت الجهاز منه، وأجبته وأنا أضحك:

- لا بل سنسافر الى المريخ معاً.

ثم اتجهت وإياه والخادم من ورائنا الى الطابق الثاني.

في غرفتي الفسيحة ذات الشرفة الواسعة التي تطل على حدائق الفيللا كان جهاز الكمبيوتر الذي أتى به سامر يستقر بجانب جهازي وبينهما شاشة كمبيوتر ثالث. وكنت أضغط على أزرار الجهاز فتظهر على شاشته تفاصيل الرحلة الحلم التي صممناها معاً الى كوكب المريخ.

أما سامر فكان يبحث عن زاوية مناسبة في الشرفة كي نقيم فوقها المدينة الكرتونية الوهمية التي ابتكرناها، ونفذها سامر بشكل رائع على شكل مجسمات صغيرة كما لو أنه مهندس يبني بناءه بيده، سعيداً يردد أغنية عاطفية لم أسمع منها إلا كلمات الحب، والسماء، والنجوم.

ولم يمض وقت طويل حتى كانت المدينة المتخيلة قد قامت فوق سطح الشرفة. وجلس سامر يتأملها بسعادة واعتزاز وهو يحتسي كوباً من شراب عجيب أعده بنفسه من مزيج من الفاكهة والخضار معاً حسب وصفة اخترعها هو. قال لي:

ـ ألا تتذوق هذا الشراب المريخي الجديد؟ لقد أعددته خصيصاً لهذه المناسبة.

استجمعت شجاعتي ورشفت منه قليلاً، وما لبثت أن أعدت الكرّة. قلت وأنا أنظر الى لون السائل العجيب الذي تماوج بين الأحمر، والبرتقالي، والأخضر:

ـ لابأس بشرابك هذا فهو ليس رديء المذاق كما توقعت.

استلقيت بين أقسام المدينة الكرتونية وأنا أضم أجزاء جسدي مثل هر صغير يتسلل من مكان ضيق خوفاً من أن أفسدها أو أن أهدم أجزاء منها.

وفجأة فتح باب الغرفة التي تحولت الى عالم صغير نملكه أنا وسامر، وأطل وجه دالية وهي تنظر بعينين اتسعتا باستغراب. وما إن لمحت مدينتنا في الشرفة حتى شهقت ودفعها فضولها نحو الداخل:

ـ ما هذا.. ماذا تفعلان؟.. وما هذه الشاشات التي تلتمع بالخرائط والرسوم؟.. كنت أظنكما تعدان حوائجكما استعداداً للإجازة!!.. ألن نذهب معاً نحن وأسرتك يا سامر؟

أجاب سامر وهو يقدم كرسياً لداليه لتجلس عليه، وينحني مداعباً إياها:

ـ أجل سنذهب لنقضي الإجازة معاً.. ولكن لتتفضل آنستي أولاً بالجلوس وبعد ذلك تصبح الأمور أكثر وضوحاً.

جلست دالية وتلفتت حولها باستغراب وهي تقول:

ـ هيه.. ماذا وراءكما أنتما الاثنان؟

اقترب سامر منها وبدت ملامحه أكثر جدية، وقال:

ـ اسمعي يا دالية.. بعد أن ذهب فارس في تلك الرحلة الليلية منذ شهور برفقة العالم سهيل، وحدثني عن تفاصيلها، زرع في نفسي شوقاً لعالم الفضاء. وبما أنه غير متاح لنا أن نذهب في رحلات قمرية أو مريخية فقد قررنا أن نقوم بمغامرة ضمن العالم الافتراضي أشبه ما تكون بالحقيقة.

لم تفهم دالية معنى ما يقوله سامر، فقلت:

- يقصد أننا خططنا لرحلة الى سطح الكوكب الأحمر المريخ عبر شاشات الكمبيوتر. فقد استعنا بصور حقيقية لسطح الكوكب وطورنا برنامجاً بالبعد الثالث يجعلنا نشعر وكأننا ضمن المكان نفسه. ولتعميق إحساسنا بالتجربة وبأن هذا العالم الوهمي ليس وهمياً فقد صممنا هذه المدينة الصغيرة كما نتصورها لو أنشئت في المستقبل فوق سطح المريخ، فما رأيك؟.. هل تنضمين الى فريقنا؟

اعتدلت دالية في جلستها، ولم تجب، ثم ما لبثت أن نظرت الى أكواب الشراب، وقالت:

- وما هذا الذي تشربانه ؟

سارع سامر ليقدم لها كأساً منه، فأخذت ترشفه مثل أي شراب عادي تعرفه دون أن تعلق، بل كانت منهمكة باكتشاف أمر آخر وهو قراءة برنامج المغامرة أو الرحلة المزعومة الى المريخ يوماً بيوم، وساعة بساعة، وما هي المهام التي يُفترض أن يُقام بها أثناء ذلك.

وانفجرت دالية تضحك بصوتٍ عالٍ عندما شاهدت في زاوية شاشة الكمبيوتر صورة تتحرك لقرد صغير وهو يمسك بثياب فضاء، وقالت:

ـ وهل سيكون هذا القرد الذي يشبه القشة شريكاً لكما في رحلة المستقبل؟

ضحكنا معها، وقال سامر:

ـ ألم تذهب الكلبة (لايكا) في رحلة الى القمر.. فلماذا لا يذهب هذا القرد اللطيف الى المريخ؟

❋ ❋ ❋

مضى يومان.. وسامر وأنا في عالم غير الذي حولنا.. نتنقل بين شاشات الكمبيوتر والمدينة المصغرة، ونعبث بأضواء الليزر فنحركها في أرجاء الغرفة على أنغام الموسيقى، وفي المساء نستلقي في الشرفة لننظر الى النجوم.

كانت أوقاتاً قضيناها والحلم ينفتح أمامنا مثل علبة سحرية، فيسحبنا في دوامة من الدوائر المتلاحقة واحدة ضمن أخرى كما لو أننا نسبح في فضاء رحب بلا حدود.

ولم تستمر الرحلة طويلاً.. ففي اليوم الثالث كان علينا أن نقطع تلك الرحلة الوهمية لنجمع أغراضنا ونرافق أسرتينا الى الإجازة.

هذه المرة لم أصطحب معي أكثر من كمبيوتري المحمول الصغير، وبعض الكتب والمجلات العلمية الحديثة التي كان سامر قد أتاني بها، وأدوات الغطس.

عند شاطئ تلك المدينة الساحلية الجميلة التي تحتضنها الصحراء من كل جانب كانت أسرتي وأسرة سامر تستمتعان بوقتهما كأي إجازة موفقة. أما أنا وسامر فرغم أننا كنا قد ابتعدنا عشرات الأميال عن ذلك العالم الخيالي الذي ابتكرناه فوق الشرفة إلا أن أجواءه مازالت تعيش معنا، ومشاعرنا تحتضنه كما الصحراء التي تحيط بنا.

كنا نستلقي تحت أشعة الشمس وأحاديثنا تدور حول فضاءات الكون، وحول أحلامنا وطموحاتنا حتى أن سامر قال لي:

ـ ألم تلاحظ يا فارس أننا لم نعد اليافعين الصغيرين اللذين كانا هنا في السنة الماضية؟

ضحكت وأنا أجيبه:

ـ طبعاً لسنا هما.. فقد تقدمنا في العمر سنة كاملة.. أم أنك نسيت عيد ميلادك؟

قال سامر:

ـ لا.. ليس هذا ما قصدته.. أعني أننا وصلنا الى مرحلة من النضج الذهني لم نكن قد بلغناها قبلاً، ولا تنسى أننا في سن واحدة حتى أننا ولدنا في اليوم ذاته من السنة ذاتها.

أخذت أغمض عيني وما ألبث أن أفتحهما قليلاً وأنا أنظر الى أشعة الشمس وهي تتسلل من بين أهدابي فينقسم كل شعاع الى عدة أشعة، قلت وأنا أغوص بجسمي في رمال الشاطئ الرطبة:

ـ ألم يكتشف العالم (آينشتاين) نظريته النسبية عندما نظر الى الشمس مثلما أفعل الآن، ولاحظ أن الشعاع الواحد يمكن أن ينقسم الى أشعة عدة، فعاد الى كتبه وأوراقه والمعادلات الرياضية ليضع نظريته الشهيرة؟.. كل الأمور نسبية يا صديقي. في العام الماضي لم نكن قد حققنا كماً من المعرفة كالتي نحن عليها الآن، وغداً سنكون غير ما نحن عليه اليوم، وهكذا...

مددت يدي بتراخٍ الى مجلة علمية وأخذت أقلّب صفحاتها، وسامر مستلقٍ بجانبي يستحم بأشعة الشمس سعيداً وكأنه يتذوق طعاماً لذيذاً.

التمعت الصفحات البيضاء أمام عيني تحت وهج الشمس.. أصبحت بحاجة لنظاراتي الشمسية.. وقبل أن أبحث عنها حولي رأيت ظلاً يقع فوق تلك الصفحات. القراءة الآن أفضل.. ولكن مَنْ الذي يلقي بظله فوقي؟.. رفعت رأسي وإذا بدالية تقف قبالتي، وبجانبها أخت سامر الصغيرة. قلتُ:

ـ أنتما إذن..

أجابتني دالية:

ـ خاب أملك أليس كذلك؟.. هل كنت تتوقع أحداً غيرنا؟

قلتُ بتهكم :

ـ ومن الذي سيكون لي موعد معه هنا على هذا الشاطئ؟

وعدت لأقرأ في المجلة، وسامر ما يزال بجانبي مستلقياً مغمض العينين وابتسامة عريضة ترتسم على وجهه. قالت دالية مستاءة:

ـ ما بكما أيها الحالمان تقضيان وقتكما بمفردكما هكذا طوال الوقت؟.. هيا انهضا لنلهو معاً.

رددت (هالة) الصغيرة:

ـ ما بكما.. انهضا.. نلهو معاً.

قلت وما أزال أنظر في المجلة:

ـ إننا نستمتع بوقتنا على طريقتنا.

أجابتني دالية مغتاظة:

ـ هكذا تفعل دوماً.. تكون معنا وكأنك لست بيننا، ولا تجيد سوى تأمل السماء أو الاستلقاء تحت أشعة الشمس.

عادت هالة تردد وراءها كببغاء مبتدئ لا يجيد تكرار إلا بضع كلمات:

ـ هكذا دوماً.. تحت أشعة الشمس.

أمسكت دالية بيد هالة، وانصرفت غاضبة وهي تقول:

ـ وسامر أيضاً.. ليس بأفضل حال منك.. قد أصابته العدوى.

وهالة تعيد من ورائها:

ـ سامر أيضاً.. منك العدوى.

فتح سامر عينيه، ونهض وهو يقول باهتمام:

ـ ما كان يجب أن تصدهما هكذا.. بل يجب أن نقضي معهما بعض الوقت.

قلت ببرود وأنا ما أزال ممدداً فوق الرمال:

ـ سنفعل ذلك.. لا تقلق سوف تعودان بعد قليل.

قال سامر:

ـ لا بل سألحق بهما.

انصرف سامر، وبقيت في مكاني أكثر إصراراً على ما أنا عليه خاصة وأن هواءً رطباً منعشاً كان يهب، وأنغام الموسيقى تصل إليّ من بعيد.

لم أعثر على نظارتي الشمسية.. لعلي أضعتها، أو أنها ترقد بجانبي تحت الرمال؟.. لا أدري.. على أي حال هاهو الظل من جديد فوق الصفحات:

ـ ابقي في مكانك يا دالية أرجوك فقد أضعت نظارتي وضوء الشمس يزعجني.

تحرك الظل فرفعت رأسي لتقع أشعة الشمس مباشرة في عيني.. ولكن مَنْ هذا الذي يقف أمامي.. لعلي أعرفه.. وجهه يبدو مألوفاً لدي:

ـ مرحباً يا فارس.. هل نحن على موعد مع المصادفة دوماً؟

نهضت مسرعاً :

ـ مَنْ العالم سهيل ؟

صافحني بحرارة:

ـ لم أتوقع أن ألتقي بك هنا.

ضحكت، وقد كنت سعيداً أن أراه ثانية:

ـ لعل قدراً ما يجمع بيننا.

هز رأسه وهو يسبقني بخطوات:

ـ هل تتمشى معي على الشاطئ؟

تركت أشيائي ولحقت به، وأنا أقول:

ـ وهل تظن أنني سأفوّت عليّ فرصة لقائك هذا؟

عاد ليسألني وهو ينظر بعيداً الى خط الأفق بينما أصبحت أسير بجانبه:

ـ وهل تحب الرياضات البحرية أو تتقن شيئاً منها؟

أجبته متحمساً كمن يتوقع عرضاً ما:

ـ أجل فأنا أجيد الغوص كما ركوب الأمواج.

ابتسم بارتياح وقال:

ـ حسناً.. هذا ما كنت أتوقعه.

وما لبث أن توقف وهو يتأملني ملياً، ثم قال:

ـ لك جسم رياضي.. وأظن أنك ازددت بضع سنتمترات طولاً منذ أن التقيتك أول مرة.

ولامس كتفه كتفي، وقال:

ـ ها قد أصبحنا بطول واحد.

ضحكنا معاً وهو يتابع حديثه:

ـ لقد أتينا أنا واثنان من أعضاء جمعيتنا هما باسل وياسر، وأنت تعرفهما بقصد الغوص.. فهل تحب أن تنضم إلينا؟

قلت:

ـ كنت أعتزم ذلك بمفردي ولكن بصحبتكم سيكون الغوص أكثر إمتاعاً.

نظر الى ساعته، وقال:

ـ إذن لن نضيع الوقت.. لنجهز أنفسنا ونلتقي بعد الظهر عند خليج القرش.. اتفقنا؟

ـ اتفقنا.

والتفت إليّ من بعيد وقال بصوت عالٍ:

ـ وسآتي بأنبوبة أوكسجين إضافية.

ركضت أجمع أشيائي من على الشاطئ، وعدت مسرعاً الى (الشاليه) حيث كنا نقيم لأخرج بدلة الغوص وأدوات الغطس وأنا أتلهف لخوض هذه المغامرة بعد انقطاعي لمدة عام كامل تقريباً عن ممارسة إحدى أمتع هواياتي.

❋ ❋ ❋

عند خليج القرش كنت أقف وحيداً وقد ارتديت بدلة الغوص مستعداً، تلفتُ حولي فلم أجد أحداً، وشردت وأنا

أفكر في تسمية المكان الذي أقف فيه.. لماذا أسموه هكذا؟.. هل هو مليء بأسماك القرش يا ترى حتى اكتسب اسمه من حضورها فيه؟.. هل يمكن أن نصادف بعضاً منها؟.. ولو حدث ذلك فهل سأخاف منها وأهرب مبتعداً أم أن عليّ أن أصطحب معي بندقيتي البحرية وأصيب بها أسماك القرش لو هاجمتني؟ أفقت من شرودي على صوت العالم سهيل:

ـ ها قد سبقتني.. هذا يعني أن لديك الحماسة الكافية للقيام بتجربة الغوص.

قلت:

ـ لقد اعتدت هذه الرياضة منذ صغري فوالدي يهتم بكثير من الرياضات، ويدربني إذا ما وجد لدي الرغبة فيها.

قال:

ـ هذا عظيم.. لاشك أن والدك إنسان واعٍ ومتفهم.. سوف أتعرف اليه.

قلت:

ـ أجل إنه أب رائع.

وأضفت ممازحاً:

ـ ولا تنسى أنني ابن مطيع أيضاً.. أين باسل وياسر؟

أجاب :

ـ في طريقهما إلينا.

جلسنا فوق الرمال نتحدث، ووجدتها فرصة لأخبره عن الرحلة الوهمية التي قمنا بها أنا وسامر. كانت عيناه تلتمع بالبريق وأنا أحدثه، وترتسم على وجهه ابتسامة خفيفة تخفي وراءها شيئاً لم أعرفه في حينه حتى فاجأني بسؤاله:

ـ وهل تعتقد أن خلق عالم وهمي يعيش ضمنه الإنسان كافٍ ولو كان الإحساس به حقيقياً؟

شعرت وكأنه يقرأ أفكاري العميقة، فأجبت:

ـ هذا ما كان يقوله لي رفيقي سامر.. وهذا ما اكتشفته بنفسي أيضاً.. إن العالم الافتراضي شيء والعالم الحقيقي شيء آخر.. والإنسان لا يكتسب المعرفة إلا من خلال التجربة الحياتية.. والتجربة لا تتحقق إلا بالتفاعل مع الحياة.

قال:

ـ بالضبط.. وهذا ما أردتك أن تدركه رغم أننا سنقوم اليوم برحلة غوص مشابهة لرحلتكما المريخية الوهمية تلك.

سألته باهتمام:

ـ ماذا تقصد أيها العالم؟

أجابني:

ـ السباحة في الفضاء كالسباحة تحت الماء، حتى أنهم أطلقوا عليها الاسم ذاته، ففي الفضاء نتحرر من جاذبية الأرض كما تتحرر أجسادنا من وزنها تحت الماء، لذا سنغوص لنسبح كما لو أننا في فضاء رحب نتحرك فيه كما نشاء.

بدوت مستغرباً لما أسمعه، فقال:

ـ معلومات جديدة بالنسبة لك أليس كذلك؟

قلت:

ـ أجل.

قال:

ـ في مختبرات الفضاء يقومون بتجارب مماثلة ليتحرر رواد الفضاء من الوزن النوعي لأجسامهم، ويتدربون على كيفية الحركة والتصرف عندما يخرجون من المركبة الفضائية لسبب أو لآخر.

وقبل أن أسأله عن جدوى هذه التجربة له شخصياً، وما الهدف منها، برز أمامنا كل من ياسر وباسل، وتذكرتهما على الفور بينما كانا يرحبان بي بحرارة، ويعاتبانني لأنني لم أتردد على الجمعية (جمعية هواة الفلك) طوال الفترة الماضية.

❋ ❋ ❋

تحت طبقات الماء التي كانت تتكدس فوقنا كطبقات من زجاج الكريستال النقي كلما هبطنا لعمق أكبر، كان العالم سهيل ومساعداه يقومون بحركات أشبه ما تكون بحركات البهلوان الذي يلعب بأدواته بخفة ومهارة، حتى ظننت أنهم يقومون بإصلاح مركبة وهمية هبطت من السماء الى أعماق الماء.. بينما كنت أسبح حولهم شأني شأن تلك الأسماك الفضولية الصغيرة ذات اللون الأحمر التي كانت تخرج رؤوسها من بين الصخور لتكتشف وجودنا، وما تلبث أن تُقبل نحونا وتشترك معنا في جميع حركاتنا وكأنها أعضاء في فريق لم يكتمل.

مكثنا تحت الماء وقتاً طويلاً حتى بدأت الشمس تسحب ضوء آخر شعاع لها لتحل مكانه ظلمة الأعماق، فأخذنا ندفع أجسادنا نحو السطح ببطء كمن يصعد سلماً بتأنٍ وروية مثل

جميع الغواصين المحترفين كي لا يصيبنا الأذى نتيجة اختلاف الضغط الجوي ما بين سطح الماء وعمقه.

كنت أسحب جسدي نحو الأعلى وأسحب معه سلسلة من الأفكار والتساؤلات، هذا عدا عن مشاهدات مثيرة لحياة صاخبة تارة وهادئة تارة أخرى تعيش تحت الماء.

❋ ❋ ❋

الإجازة انتهت وها نحن نجمع أمتعتنا لنعود.. لكن المفاجآت التي تنتظرني لم تكن قد بدأت بعد. تذمرت دالية من حزم الحقائب بعد أن تعهدت بذلك كي تفسح الفرصة لأمي أن تذهب برفقة أم سامر لإلقاء النظرة الأخيرة على الشاطئ الذي لن تقابله مرة ثانية قبل انقضاء عام كامل.

كانت أولى مفاجآتي أن أرى (سامر) منهمكاً في مساعدة دالية وقد أصبحا صديقين، وهو يمر من أمامي دون أن يعيرني أي اهتمام. ولم تكن آخر المفاجآت أن أرى والدي يأتي نحونا برفقة العالم سهيل وهو يضع يده فوق كتفه ويتحدث اليه كما لو أنهما صديقان.

وقفت أراقبهما من بعيد وأتساءل: ترى متى تعمقت معرفتهما؟ وعن ماذا يتحدثان؟.. يبدو أنه موضوع جدّي.. لا بل يتخلله بعض المزاح ربما.. فهما الآن يضحكان.. إنهما يتبادلان أرقام هواتفهما.. ترى ماذا وراءهما؟ قلبي يحدثني أن هناك أمراً يتعلق بي.

كنت ما أزال أقف في مكاني عندما وصلا إليّ.. نظرت في عيني أبي وأنا أتخيل نفسي وقد تحولت الى إشارة استفهام كبيرة..لون عيني أبي الأزرق بدا أكثر صفاءً وعمقاً.. هل من المعقول أنني لم ألحظ لونهما الحقيقي بهذه الدقة من قبل؟.. وانفرج ثغره عن ابتسامة بيضاء ساحرة.. وهذه الابتسامة ألم أرها من قبل مئات المرات؟؟.. إذن لماذا تبدو مختلفة عن كل الابتسامات؟!

وبدون مقدمات طويلة قال لي:

ـ فارس.. أليست كندا قريبة من القطب الشمالي؟

أجبت مستغرباً:

ـ أجل يا أبي.. بل هي الأقرب اليه.

عاد يسألني بجدية أكبر عهدتها به وأنا أعرف أسلوبه العملي والسريع تجاه جميع الأمور:

ـ كم تبلغ من العمر الآن؟

فتحت فمي مندهشاً من سؤاله فإذا به يشير إليّ بيده:

ـ هذا لا يهم.. لا يهم.. مادام لديك فكر واعٍ، ولست متهوراً أو طائشاً، كما أنك ولد ذكي وتمتلك مواهبً عدة ولو أنها مازالت كامنة في أعماقك.

أخذت أنقّل بصري بينه وبين العالم وأنا أكاد أنفجر بل أريد أن أصل الى ما يريد أن يقوله، التفتَ الى العالم وقال له:

ـ أخبره بالأمر بنفسك.

أخذ قلبي يضرب بشدة كعادتي كلما ازداد انفعالي الداخلي، وأنا أحاول أن أسيطر على نفسي أمام الآخرين حتى لا أبدو أضحوكة. بماذا سيخبرني؟.. وما علاقة عمري بالقطب الشمالي أو الجنوبي أو حتى خط الاستواء؟.. هل أثّرت حرارة الشمس يا ترى عليهما؟

قلت بصوت عالٍ:

ـ ما الأمر أخبرني أرجوك.

أخذ العالم يتحدث بصوت هادىء ويقول ببساطة:

ـ ستذهب برفقتي في رحلة علمية قريباً من القطب الشمالي حيث يقام هناك مختبر لأبحاث الفضاء.. ما رأيك.. هل توافق؟

لم أصدق ما سمعته حتى أعاده عليّ أبي أكثر من مرة، وكاد يغمى عليّ من شدة الفرح والمفاجأة. ولم أشعر بنفسي كيف اندفعت أقبّل أبي والعالم سهيل، وأقفز وأنا أكاد أطير من السعادة. وركضت نحو دالية، وسامر، وهالة أقبلهم وهم ينظرون إليّ باستغراب. ولم يلبث أن علم الجميع بالأمر، وقالت دالية وهي تضحك:

- إذن لن أكون الشخص الوحيد الذي سيسافر هذا الصيف.

الفصل الرابع

«قطعة من المريخ على الأرض»

لم يكن قد مضى سوى بضعة أيام حتى كنت أقف شبه وحيد تحت شمس منتصف الليل للصيف القطبي الشمالي، فعددنا قليل لا يتجاوز العشرين، خمسة من العلماء منهم العالم سهيل، وخمسة من المساعدين، والباقي من الفنيين.

كانت دهشتي تجاه ما حولي لا تقل حدة عن دهشتي الداخلية.. فهل من المعقول أن مصادفة ما عبرت حياتي هي التي قذفت بي دون مقدمات الى هذا المكان، أم أنه قدر أسير نحوه طائعاً مستجيباً؟.. ولم أكن أصدق أنني وصلت الى هذا المكان العجيب.. مكان غريب كأنه هبط من كوكب المريخ ليستقر فوق كوكب الأرض، بل هو حقاً تشكل بفعل نيزك أو كويكب سيّار جاء من الفضاء الخارجي ليضرب الأرض بقوة هائلة مازالت تعلن عن قدومه منذ ملايين السنين. والعلماء يقولون إن هذا حدث منذ ما لا يقل عن ثلاث وعشرين مليون سنة.. رقم خيالي مثير للاهتمام.

عندما وصلنا الى حفرة (هاوتون) فوق جزيرة (ديفون) الكندية قريباً من القطب الشمالي بدا الأمر لي وكأنه فيلم

سينمائي من أفلام الخيال العلمي. (فهاوتون) هذه هي حفرة واسعة من الأرض تمتد لمسافة خمسة عشر ميلاً، وتشبه الى حد كبير تلك الحفر الموجودة في كوكب المريخ. عثر عليها العلماء مصادفة فوق هذه البقعة من الأرض فاعتبروها موقعاً عملياً نموذجياً للقيام بتجارب الرحلات المستقبلية الى كوكب المريخ.

❋ ❋ ❋

العالم الكبير رئيس البعثة كان رجلاً مهيباً طويل القامة، هادىء الطباع، عيناه الزرقاوان بلون السماء كانتا تستحضران أمامي صورة أبي باستمرار.. بل لعل طباعه أيضاً كانت تشبه طباع أبي.. شخص جريء مغامر يؤمن بالعلم وبإتاحة فرص الإطلاع للأجيال وتشجيعهم إذا وجدت لديهم رغبة البحث العلمي والاستجابة له.. قال لي عندما تعرفت اليه: اسمك فارس أليس كذلك؟

أومأت برأسي بالإيجاب، تابع:

ـ أهلاً بك بيننا، أنا سعيد أن أرى شاباً يافعاً في مثل سنك يشارك العلماء من أمثالنا في تجاربهم بدافع حب المعرفة والإطلاع.

وما لبث أن قال مداعباً:

ـ أم انك تخطط لتكون عالماً أيضاً في المستقبل؟

أجبته وقد أعطتني كلماته قدراً من الارتياح:

ـ هذا ما أتمناه أيها العالم الجليل.

نظر إليّ بمودة ثم قال:

ـ أنت تعلم أنك لست أول الهواة الذين شاركوا معنا في مثل هذه التجارب.. ومنهم الدكتور سهيل الذي بدأ كهاوٍ ثم أصبح فيما بعد عالماً معروفاً له مكانته العلمية المرموقة.

قلت:

ـ أجل أعرف هذا فقد حدثني الدكتور سهيل عن تجربته وكيف تطور الى أن وصل الى ما هو عليه الآن.

قال بجدية وحزم:

ـ إذن أنت تعرف كل شروط الإقامة بيننا والانضمام إلينا، وعليك منذ الآن أن تلتزم بمهمة المشاركة الموكلة إليك.. ولا تنسى أن الانضباط بالتعليمات والوقت هما الأساس.

قلت:

ـ أعرف هذا وأرجو أن أكون عند حسن الظن بي.

❋ ❋ ❋

لم يكن من السهل بالنسبة لي أن أستوعب كل ما يدور حولي، ولكنني ساعدت نفسي كي أتأقلم مع هذا العالم الجديد بسرعة رغم أنه لا يشبه أي عالم مما عشت أو عرفت.

❋ ❋ ❋

اختارني الدكتور سهيل لأكون أحد مساعديه في مهمته التي كلف بها والتي تتعلق برصد النجوم والكواكب، وتدوين المعلومات حولها، ورصد الظواهر الفلكية. أما مهامي فكانت تنحصر بأن أهيىء له الأدوات، والأجهزة التي سيستخدمها في عمله، وأن أضبط زوايا التلسكوبات في غرفة المختبر الفضائي، كل ذلك وفق برنامج فني مطبوع ومنظم بجدول زمني. وفي أوقات الفراغ كنت أنضم الى باقي العلماء باختصاصاتهم المختلفة في الجيولوجيا، والنبات، وعلم الأحياء، أو أن أمضي وقتي بطريقتي الخاصة.

في الفترة الأولى كانت تسيطر عليّ رغبة اكتشاف المكان فأخرج من غرف المختبرات لأتجول خارجها في البرد الشديد

رغم انه الصيف فحرارة الصفر المئوية تحتفظ بالثلج والجليد دون ذوبان.

في ذلك المساء خرجت كعادتي أطوف وأكتشف.. كان بياض الثلج أكثر بريقاً تحت وهج صيف القارة القطبية، وكان الوقت ليلاً لكنه ليس بالليل الذي اعتدناه إنه ليل لا تغيب عنه الشمس. كم أنا محظوظ بأن أشاهد إحدى الظواهر الطبيعية غير المألوفة لدينا، قد نسمع عنها أو نراها عبر الشاشات لكن قليلاً منا من يعيش تحت شمسها. تنفست بعمق وشعرت بالهواء النقي يملأ رئتي.. انتعشت واكتسبت شحنة أكبر نحو المغامرة، فاندفعت أمشي وأمشي حتى غاب البناء الكبير للمختبر عن ناظري. كانت الأرانب البرية تهرب مني إذ تراني فهي لم تألف رؤية أناس في عالمها الثلجي غير المألوف هذا.. أما عصافير (الدرسة) الثلجية فهي أكثر وداً معي، تحوم حولي وتقترب مني دون خوف، حتى أن أحدها تجرأ ووقف فوق رأسي.. لعله ظنه عشاً متحركاً أو أنه كان يبحث عن شيء من الدفء. شعرت بألفة مع ذاك العصفور الصغير كسرتْ الوحشة التي تسربت الى نفسي من ذلك العالم الثلجي الصامت الخالي إلا من الدببة القطبية، وحيوانات (الرنة)، والثيران البرية. توغلت في مسيري أكثر أبحث عن حياة نباتية أجدها فلم أعثر على أي من النباتات أو الأشجار.. إذن فكيف تعيش تلك الحيوانات

وعلى أي شيء تتغذى؟.. لابد أن هناك حياة نباتية ما بعيداً عن حدود حفرة (هاوتون).

لم تعد الأرض أمامي ممهدة مستوية بل أخذت أسير فوق أجزاء صخرية ملأى بالتجاويف والمنخفضات.. وما هي إلا مسافة قصيرة حتى تعثرت بصخور بدت على شكل أكوام تكدس بعضها فوق بعض وكأنها شظايا متلاحمة، وبدت المنطقة من حولي كما لو أن دماراً وخراباً شاملاً قد حل بها منذ عصور بعيدة فسحق أجزاءها، وأوقف الحياة فيها بكل أشكالها. تسربت الى نفسي أفكار سوداء.. هل أنا الكائن الحي الوحيد في هذا المكان المقفر؟.. وهل أنا فوق الأرض حقاً أم أنني على كوكب المريخ؟.. أين مركز الأبحاث.. أين أنا الآن.. هل ضعت بين اتجاهات الدنيا الأربع؟

❋ ❋ ❋

وبدأ خوف من نوع غريب يستولي عليّ.. أسرعت في خطواتي دون أن أعرف أين أسير، فاصطدمت قدمي بصخرة برزت حوافها كنبات شوكي يمد أصابع شيطانية تبحث عن فريسة ما، وما لبثت أن وقعت فوقها فجرحت ساقي، وسقطت قطرات من الدم فوق بياض الثلج. وفجأة سمعت صوت

حركة، تسمرت في مكاني، ويدي تضغط على الجرح النازف، وأخذت أجول بنظري فيما حولي مستكشفاً مصدر الصوت الذي وصل إليّ، وإذا بأحد الدببة القطبية يقف منتصباً على قائمتيه قريباً مني.

شعرت بخوف حقيقي.. فما الذي أتى بهذا الكائن الآن؟ هل شم رائحة الدم فجاء، أم أنه يسكن هنا؟.. لا فالمكان إذن لا يخلو من الحياة تماماً كما تصورت.. ماذا لو أنه هاجمني؟.. بماذا سأدافع عن نفسي؟.. بحثت حولي عن أي شيء ألتقطه ليكون سلاحي ولكن ما من غصن أو ما شابه.. ووقعت يدي على صخرة صغيرة مسننة الأطراف انفصلت عن أمها الصخرة الكبيرة، فالتقطتها بسرعة، وضممتها بكلتا يدي نحو صدري، ووقفت مترقباً دون أية حركة وكأنني تمثال من الشمع وضعه صانعه وحيداً فوق غطاء أبيض.

اقترب الوحش القطبي مني بينما كنت أسمع ضربات قلبي تعلو وتتسارع حتى ظننت أنه سيسمعها.. يا إلهي هل سأموت بهذه البساطة بسبب أحد دببة القطب الشمالي؟.. يا لها من ميتة سخيفة.. لا بل لا أريد أن أموت الآن لأي سبب كان. تشبثت بقطعة الصخر في قبضتي وأنا أحدّث نفسي: يجب أن أدافع عن وجودي بكل ما لدي من قوة، ولكن لو أن الله

قدّر لي الموت فهذا قضاؤه وقدره.. ألست مؤمناً فلأتسلح إذن بالإيمان. وأخذت أقرأ ما كنت أحفظه من كتاب الله وقد استسلمت لمشيئته.. بينما أصبح الدب على مسافة متر أو أقل، وبدا هائل الحجم وهو يتشممني من بعيد. نظرت في وجهه فتراءى لي شيء يشبه الدموع ينهمر من عينيه.. ما هذا؟.. هل هو يبكي.. وهل تفعل ذلك الحيوانات أم أنه أشفق علي؟.. وبينما كنت أترقب خطوته التالية ظهر أمامنا دب قطبي صغير يندفع نحونا.. إنها أنثى إذن وهذا وليدها وهي تبحث عنه، وما إن رأته حتى هوت على أقدامها الأربع وركضت نحوه غير عابئة بي، وابتعدا معاً سعيدين.

تنفست الصعداء ورفعت رأسي للسماء أشكر الله أن أنقذني واستجاب لدعائي. وقفت كالتائه لا أعرف من أي اتجاه سأعود للمركز.. هل يقع في الشرق أم من جهة الغرب؟.. وكيف سأحددهما وأنا لم أر شروقاً للشمس أو غروباً لها، وكلما نظرت نحوها رأيتها تتوسط السماء؟ وتذكرت جهاز الإنذار الصغير الذي زودنا به المركز لاستخدامه في الحالات الطارئة كحالي الآن.

مددت يدي الى جيبي فلم أجده، لقد نسيته في غرفتي.. يا لي من فتى طائش.. كيف أجازف بالابتعاد هكذا دون أن أحسب حساباً للمفاجآت؟!!

هب الهواء أكثر برودة وبدأت أشعر به بعد أن زال عني التعرق نتيجة الانفعال الشديد.. أصبح من الضروري أن أعثر على طريق العودة.. لأتتبع إذن آثار أقدامي فوق الثلج فهي دليلي الوحيد. وأخذت أدوس فوق الآثار ذاتها فتغوص قدمي مع كل خطوة لتعمق ما تتركه وراءها من أثر. وبفعل الهواء البارد بدأ الثلج يتحول الى جليد، وكدت أنزلق مرات عدة لولا أن تمسكت بحواف الصخور الناتئة التي تكسو المكان والرياح قد كنستها لتبدو كما لو أنها من كوكب آخر.

بدا مسيري متعباً وطويلاً، ولم أكن أدرك أنني قطعت كل هذه المسافات وعليّ أن أقطعها من جديد لأعود. كنت أرتجف من البرد رغم ثيابي الدافئة والمصممة خصيصاً لهذه الأجواء، وأسير كما لو أنني أمشي فوق بيض خوفاً من أن أنزلق أو أقع في إحدى الحفر العميقة التي تنزرع بكثافة وكأنها أفواه مخيفة تريد أن تبتلعني.

عندما نظرت بالاتجاه الذي اعتقدت أن فيه المركز رأيت غير بعيد عني مجموعة من البالونات المطاطية الملونة ترتفع

في الهواء وكأنها تلوّح لي، وأدركت على الفور أن جماعة المركز قد أطلقوها للدلالة على مكان تواجدهم كما لو أنه نداء لباقي أفراد الفريق للانضمام اليهم. صفقت فرحاً وسرت متوجهاً نحوهم.

❋ ❋ ❋

عندما وصلت حيث فريق المركز يقومون بتجاربهم كان التعب قد أنهكني، واستنكر الجميع مغامرتي الحمقاء تلك التي خرجت بها من دون جهاز الإنذار، أو النظارة الواقية من أشعة الشمس، أو حتى العربة التي تسير فوق الجليد.

وبعد أن عقموا لي الجرح وضمدوه، اقترح رئيس البعثة أن يعود بي أحد الفنيين بعربته الى المركز لأستريح، ولكني رفضت، واكتفيت بتناول كأساً من الشاي الساخن، وبالجلوس بعض الوقت، ورحت أراقب ما يفعله العلماء حيث نصبوا معداتهم وأدواتهم وسط إحدى الحفر العميقة والتي يعتقدون أنها بحيرة جافة، ونزلوا إليها ليفحصوا صخورها والتشققات والتجاويف من حولها مستخدمين المثاقب والأجهزة الرادارية.

لم يكن الدكتور سهيل بين العلماء، وكنت قد نسيت تعبي عندما اقتربت من أحدهم لأسأله فبادرني:

ـ هل ترى الى هذه الصخور الداكنة.. إنها أجزاء من الصخرة الداخلية للجزيرة التي سحقها الانفجار وموجة الصدمة عندما ارتطم الكويكب بالأرض.

سألته:

ـ وما سر هذه التشققات من حولها؟

أجاب:

ـ لقد تسبب الانفجار بتطاير الصخور الصوّانية والغرانيت والدولوميت الى ارتفاع ألاف الأقدام محدثاً بذلك هذه التشققات في الأرض، ظهرت من خلالها المياه الجوفية.

قلت:

ـ ولابد أن هذه المياه قد تدفقت وملأت المنخفضات والتجاويف الى أن جفت.

أجاب العالم:

ـ هذا صحيح.. كما أن موجة الصدمة والحرارة العالية الناتجة عنها أزالت كل النباتات، وقد كشفت لنا المستحاثّات أن المنطقة كانت خصبة بأشجار الصنوبر والراتنج.

عاد العالم ينهمك في عمله عندما سألته:

ـ ولكن قل لي ما فائدة هذا في أبحاث المريخ؟

ضحك وقال:

ـ كل الفائدة.. فلو عرفنا باستخدام مقياس الطيف ماهية الصخور، والرواسب هنا وإشاراتها ودلالاتها لعرفنا أنواع الصخور نفسها في أماكن أخرى من الكون استناداً الى الصور المرسلة إلينا من الأقمار الصناعية. أما دراسة الصخور ورواسب قاع البحيرات في هذه الحفر فهي للتأكد من وجود الماء في الحفر المماثلة لها والموجودة في كوكب المريخ.

وقبل أن ينصرف عني أضاف بصوت خافت وكأنه يفضي لي بسر:

ـ وهكذا لن نحتاج الى الذهاب الى تلك الأماكن البعيدة جداً.

وقعت عبارته الأخيرة عليّ كالصدمة التي حدثني عنها، ووجدتني أردد لنفسي: الأماكن البعيدة!!.. والبعيدة جداً.. إذن لن تكون هناك في المستقبل رحلات لاستكشاف الكوكب الأحمر.. ولن يذهب الإنسان الى المريخ.

شعرت بخيبة أمل كبيرة حتى أنني كنت صامتاً طيلة مسافة العودة الى المركز، ودخلت غرفتي بهدوء وأنا أكتم سر خيبتي. كم داعب المريخ أحلامي وأنا أتصور كيف ستطؤه قدم أول إنسان كما وطئت القمر.. فهل سيغيب عن أحلامي بعد الآن؟

❋ ❋ ❋

لم تنتهي المدة المقررة للبعثة العلمية، لكن مهمة الدكتور سهيل انتهت وكان عليّ أن أعود معه. تمنيت لو أنني أظل هنا لمدة أطول، ولو طلبت ذلك من رئيس البعثة لوافق، لكن إحساساً غامضاً كان يشدني الى وطني وأسرتي.

وقّع الدكتور سهيل بسرعة أوراق الأبحاث التي قام بها ونتائج مهمته، وسلمها الى كبير العلماء وهو يودعه، ويرجو لقاءه ثانية، بينما تمنى له هذا الأخير التوفيق والنجاح في مشروعه الجديد لدى معهد الفضاء.

ودّعنا الجميع واتجهنا نحو الطائرة الخاصة التي كانت بانتظارنا. وقبل أن نصعد إليها رحت أسأله ما قصة معهد الفضاء؟ ولماذا لم يخبرني بها؟

وبينما كنت أنظر من النافذة الصغيرة كيف نبتعد عن جزيرة (ديفون) كنت أتساءل هل سيجمعني القدر من جديد يا ترى بالدكتور سهيل، وهو يقول:

ـ مشروعي الجديد هو الإلتحاق بالمعهد العالي لريادة الفضاء، فقد قررت أن أصبح رائداً مهما كلفني الأمر من جهد، وتدريب، ودراسة.

فتحت كلماته أمامي أفقاً جديداً، وتنبهت الى أمر ربما كان غائباً عني، أو أنني غيبته قصداً في أعماق الذاكرة. أدرت وجهي نحو النافذة وأنا أودع قارة القطب الشمالي التي قد لا أراها ثانية، وما لثبت أن أغمضت عيني في إغفاءة قصيرة داعبني فيها حلم كنت أرى نفسي فيه أتسلق سلماً طويلاً بألوان قوس قزح، وكلما صعدت درجة من درجاته كلما ظهرت أمامي غيرها، حتى وجدت نفسي معلقاً في الفضاء، وعندما أردت أن أعود فوق درجات السلم ذاته رأيتها تهرب من تحت قدمي واحدة تلو الأخرى، وأخذت تتجمع حولي في حلقات كأنها أفلاك ملونة. حاولت أن أفلت منها فلم أستطع.. نظرت

نحو الأسفل فرأيت الأرض بعيدة جداً.. ونظرت فوقي فرأيت مجموعة من النجوم والكواكب تشع بأنوار غريبة.. وما لبث وجه أبي أن أطل من بينها واجماً حزيناً.

صحوت من إغفاءتي على صوت هبوط الطائرة في أول محطة لنا على طريق العودة، وما أن استرجعت الحلم في ذاكرتي حتى شعرت بانقباض شديد وقلق، ولم يعد يشغل تفكيري شيء سوى أن أحسب ساعات السفر الطويلة الباقية حتى أصل الى المنزل حيث أسرتي. وعندما حاولت الاتصال هاتفياً بدالية فاجأني صوت خالتي تقول:

ـ لم تقض دالية عندي كل إجازتها فقد كان عليها أن تعود الى الوطن.

حديث خالتي وصوتها المتهدج زادا من اضطرابي.. فلماذا تعود دالية من كندا قبل موعد رجوعها المقرر؟.. قالت لي عندما افترقنا في مطار العاصمة الكندية في طريقي الى جزيرة (ديفون) أنها لن تعود من إجازتها قبل نهاية الصيف.. فما سبب هذا الرحيل المفاجئ يا ترى؟

تركت العالم سهيل في مطار إحدى المدن الأوروبية حيث سيقيم ليلتحق بمعهد الفضاء، وودعته على أمل أن تجمعنا

الحياة مرات ومرات أخرى فقد أصبحنا صديقين فعلاً، بل أكثر من ذلك إذ كنت أعتبره مثلاً أعلى وأخاً أكبر. قال لي:

ـ لن تنقطع أخباري عنك، وسأبعث إليك برسائلي باستمرار بمجرد أن أستقر ويصبح لي عنوان.

افترقنا هو وأنا كل في اتجاه.. هو نحو طموحه ومستقبله.. وأنا نحو قدر لا أعرف ماذا سيكون.

الفصل الخامس

«إجـازة فـي المريـخ»

عندما اقتربت السيارة التي تقلني الى المنزل بدت الفيلا أمامنا مطفأة الأنوار.. كنت قلقاً إذ لم أجد أحداً بانتظاري في المطار. ازداد قلقي وطلبت من السائق أن يتوقف ويصطحب حقائبي الى الداخل بينما هبطتُ من السيارة مسرعاً.

وقبل أن أصل الى حديقة الفيللا رأيت الباب الخارجي للمنزل يُفتح، ويطل وجه أمي وهي تبتسم لي. ركضت نحوها، وأخذت أعانقها، وأقبلها.. هطلت الدموع غزيرة من عينيها وحزن عميق يرتسم على وجهها. وأقبلت دالية تستقبلني وتعانقني بحنان. ولفت انتباهي ثوبها الأسود وكذلك ثوب أمي. سألت بانفعال:

ـ لماذا عدت باكراً يا دالية؟

فصمتت، عدت أسأل:

ـ أين أبي؟.. لماذا لم يأتِ الى المطار؟

فلم أسمع جواباً.. ركضت نحو السلم الداخلي لأصعد الى الطابق الثاني أبحث عن أبي فلفتت نظري صورته في قاعة الاستقبال وقد وضع فوق زاويتها شريط أسود. وقفت مذهولاً وأنا أنقّل بصري بين صورة أبي وبين أمي وأختي المتشحتين بالسواد، فأدركت أن مصيبة قد حلت بأسرتي وأن أبي قد غادرنا الى غير عودة.

نوبة من البكاء الحاد أصابتني، وشعرت بألم وحزن عميقين يحفران في قلبي، ولم أستطع أن أتحمل نبأ وفاته فوقعت على الأرض مغشياً عليّ.

عندما أفقت من إغماءتي وجدت نفسي ممدداً في سريري وبجانبي أمي وأختي وهما تحاولان تهدئتي ومواساتي.

❋ ❋ ❋

توفي أبي بحادث سيارة بسبب سائق أرعن.. السبب لم يعد مهماً.. المهم أن صدمتي بفقد أبي شديدة عليّ، ولبثت مدة من الزمن حزيناً صامتاً لا يثير اهتمامي شيء حتى رسائل الدكتور سهيل التي كانت تردني تباعاً كنت أهملها في أغلب الأحيان، ولم تعد لي شهية لا لطعام ولا لكلام، وأمضي أغلب أوقاتي ممدداً في شرفتي أتطلع الى السماء، وأراقب النجوم.

استمر الأمر بي على هذه الحال عدة أسابيع نقص خلالها وزني وبدوت كالمريض.. كان صديقي سامر يتردد عليّ باستمرار، ويحاول مع دالية أن يخلقا جواً من المرح يخرجني من حزني وعزلتي.

وفي إحدى المرات أقبلت أمي نحونا تحمل المثلجات، وجلست بيننا وهي تضحك وتتحدث، وقد عادت إليها ابتسامتها القديمة أو أنها كانت تصطنعها ليبدو الوضع طبيعياً.

قالت لي:

ـ اسمع يا فارس.. صحيح أن الصدمة كانت قاسية علينا جميعاً، ولكن الحياة يجب أن تستمر ولا مكان للحزن والهزيمة فيها.

قلت وأنا أستجمع طاقتي:

ـ أجل يا أمي.. أجل.

التفت إليّ سامر، وقال:

ـ والشجرة التي لا تقتلعها العاصفة تقويها.

عادت أمي لتقول:

ـ مادامت لديك يا ولدي هوايات مختلفة فلماذا لا تنشغل بها، وتساعد نفسك على الخروج من أزمتك؟

قلت:

ـ بل هو هدف.. هذا ما كنت أفكر به فعلاً، وقد قررت أن ألتحق بمعهد لعلوم الفضاء أفتتح حديثاً في المدينة فربما أصبحت ذات يوم عالماً مثل الدكتور سهيل.

ولأول مرة منذ شهور سُمعت ضحكة تنطلق من شرفتنا.

❋ ❋ ❋

مضت أسابيع وأنا أشغل نفسي بالذهاب كل يوم الى المعهد، وفي طريق عودتي الى المنزل أدخل الى النادي لأمضي بعض الوقت مع سامر وباقي الأصدقاء، وفي المنزل أقضي أغلب أوقاتي وراء جهاز الكمبيوتر وشبكة الإنترنيت، خاصة وأن الدكتور سهيل أصبح يراسلني يومياً تقريباً، وأنا بدوري أطلعه على أخبار المعهد الذي التحقت به، فيشجعني ويزودني بالمعلومات كما التعليمات مما ساهم كثيراً بنجاحي وتفوقي على باقي زملائي من طلاب المعهد.

كان يوماً مختلفاً ذلك الذي اتخذت فيه قراري أن أتابع تعليمي وأتخصص في مجال علوم الفضاء، وعندما عدت الى غرفتي رأيت جهاز الكمبيوتر يعلن عن وجود رسالة في صندوق بريدي الإلكتروني. كانت رسالة من الدكتور سهيل تحمل تهنئة بالنجاح وفي آخرها ملاحظة يقول فيها: «لو اطلعت على مجلة الفضاء العلمية في عددها الأخير لوجدت إعلاناً عن أول رحلة الى كوكبك العزيز كوكب المريخ، وعلى متنها مقعد مخصص لأحد المتحمسين للسياحة الفضائية مقابل مبلغ كبير من المال يدفعه السائح لصالح معهد بحوث الفضاء.. فما رأيك؟»

لبثتُ مدة أنظر الى ما قرأته والأفكار تضج في رأسي مثل خلية نحل نشطة، وهاجمتني الأحلام فأخذت أتصور نفسي أنني ذلك السائح المحظوظ.. ولكن هل سيكون الثمن ثروة طائلة؟

دخل سامر فجأة وانتشلني من أحلامي إذ سمعته يقول:

ـ هيا يا فارس.. ألم تجهز بعد لنخرج في موعدنا؟

التفت اليه ساهماً، وقلت:

ـ أهلاً يا سامر.. أي موعد تقصد؟

قال باستغراب:

ـ هل نسيت أننا سنذهب لزيارة معرض صور الفضاء في المجمع الثقافي؟.. أما كان اقتراحك؟

كنت فعلاً قد نسيت ذلك.. واقترب سامر من شاشة الكمبيوتر وهو يسأل:

ـ ما الذي يشغلك إذن فوق هذا الجهاز العجيب؟

وراح يقرأ الرسالة، وما لبث أن انفجر ضاحكاً، وقال:

ـ إياك أن تقول لي إنك تحلم بمثل هذه السياحة..

قلت بعصبية:

ـ بل أنا كذلك.. هيا بنا الآن الى المكتبة لنأتي بعدد المجلة.

قال سامر:

ـ والمعرض؟

قلت وأنا أستعجله في الذهاب:

ـ ليس مهماً الآن.. المهم أن أحصل على نسختي من المجلة.

هبطتُ الى الشارع مسرعاً وسامر ورائي.

في الطريق كنت أحدثه عن أحلامي التي ظننت أنها ماتت بموت أبي. ولكنني اكتشفت أن التجربة القاسية في الحياة إما أن تشوه الإنسان، أو أن تصقله وتجعله أكثر إصراراً وتصميماً على آماله وطموحاته، وأنا اخترت ألا أكون سلبياً أو انهزامياً، فموت أبي هو قضاء وقدر ويجب ألا يشكل عائقاً أمام مستقبلي.

كان سامر ينصت إليّ باهتمام وهو معجب بأفكاري، ويوافقني عليها حتى أنه قال لي:

ـ أنا سعيد أن أسمع منك هذا يا فارس.. ولاشك أنك ستكوّن في المستقبل ثروة كبيرة كثروة والدك.

أجبته:

ـ والدي كان رجل أعمال وقد حصل على المال بفضل ذكائه واجتهاده، ولكي يسعد أسرته ويؤمّن لها كل ما تتوق اليه.. ولكن الثروة التي أسعى إليها قد لا تكون بالمال فهناك ثروة الفكر والعلم، وحتى المغامرة والاكتشاف.

وقبل أن نخرج من المكتبة وأنا أحمل النسخة الوحيدة المتبقية من مجلة الفضاء رن هاتفي المحمول وكانت دالية على الخط تطلب مني أن أعود الى المنزل بسرعة فهناك اجتماع عائلي لأمر هام.

لاحظ سامر اضطرابي وأنا أتساءل: ما هذا الاجتماع المفاجئ وبسبب ماذا يا ترى؟

أخذ يتحدث إلي بمواضيع كثيرة محاولاً تهدئتي الى أن أوصلني الى البيت وانصرف.

ما إن دخلت قاعة الاستقبال حتى وجدت أمي ودالية مع خالي، وعمي، ومحامي الأسرة، وهم ينتظرون قدومي. أجلسني خالي الى جانبه وهو يلاطفني، ويسألني عن رحلتي الى القطب الشمالي.. كنت أجيبه باقتضاب، ولم أرحب كثيراً بأحاديثه الجانبية فقد كنت منشغلاً بمعرفة سر هذا الاجتماع.

وما هي إلا دقائق حتى انكشف الأمر.. فقد قررت والدتي أن توزع ثروة أبي بينها وبيننا أنا وأختي بحيث يتصرف كل منا بحصته بالطريقة التي يراها مناسبة. ولم يعترض أي من خالي أو عمي أو حتى محامي الأسرة على قرارها، بل أكد عمي أنني فتى ناضج، وموضع ثقة تسمح لي رغم صغر سني أن أحصل

على ثروتي، ووافقه الجميع بأن عليّ أن أحمل مسؤوليتي منذ الآن.

كان حدثاً مفاجئاً وجديداً في حياتي.. ولكني بدأت أعتاد على المفاجآت غير المتوقعة التي تبرز أمامي كوميض البرق.. هذه المرة استوعبت الأمر بسرعة رغم انفعالي الشديد به، إذ لم أكن أدري هل أبكي فرحاً لأنني أصبحت أملك ثروة كبيرة، أم أبكي حزناً على أبي الذي ورثت ثروته قبل أن يرى نجاحاتي في الحياة؟!

انقضى ذلك اليوم المليء بالأحداث المثيرة وكنت قد اتخذت قراري. قلّبت صفحات مجلة الفضاء، وما إن عثرت على عنوان الجهة التي تتبنى رحلة المريخ القادمة حتى أسرعت أفتح شبكة الإنترنيت لأتصل بتلك الجهة، وأسجل اسمي كأول سائح يطلب المشاركة في الرحلة لاسيما وأنني مؤهل من معهد لعلوم الفضاء، ولدي من المال ما يكفي لأسدد به تكاليف الرحلة. ولبثت مدة من الزمن أنتظر الرد.. أطلعتُ أمي وأختي على الأمر فلم تعترضا، بل قالت أمي:

ـ كان والدك يتجاوب مع كل رغباتك لثقته الكبيرة بك.. وأنا بالتالي لن أعارضك مادام هذا اختيارك.

ولم أنسَ بالطبع أن أطلع الدكتور سهيل على كامل التفاصيل، وإذا به يشجعني ويعدني بأنه سيتصل مع القائمين على الرحلة ليضمن اختيارهم لي دون غيري. وبالفعل هذا ما حدث، وجاء الرد بالإيجاب عبر بريدي الإلكتروني بعد فترة وجيزة كان عليّ خلالها أن أتدرب في المعهد لساعات طويلة وأن أجهز نفسي لسفر قريب.

أصبح سفري بالطائرة من بلد لآخر بمفردي أمراً عادياً، وكذلك وصولي الى مركز الأبحاث ولقائي مع العلماء، فلقد كان لتجربة رحلة القطب الشمالي، ولدراستي في معهد الفضاء دور كبير في إنجاح المرحلة الأولى من تهيئتي للصعود الى مركبة فضائية.

اجتزت جميع اختبارات اللياقة بنجاح، وكذلك اختبارات المعلومات، حتى اختبار مقياس الذكاء كان موفقاً بدرجة عالية مما زاد من ثقتي بنفسي ومن إصراري على إنجاح الرحلة.

مضت أسابيع على هذه الحال حتى جاء موعد انطلاق المركبة التي ستحملني مع ثلاثة من الرواد الى الكوكب الأحمر في أعماق الفضاء.

كانت لحظات حاسمة تلك التي انطلقت فيها المركبة لتأخذ مسارها فيما بعد نحو كوكب المريخ.. البداية كانت موفقة فالأجهزة تعمل جيداً، وما من خطأ أو خلل في مسار الرحلة.

أثناء سفر المركبة كنت كتلة ممغنطة من المشاعر والترقب.. بل أشبه ما أكون بإنسان آلي ليس له وجود إلا من خلال هذه الإشارات، والأصوات، والشاشات، والارتباط بالأزرار، والتحكم بها، وقد انتفى الوجود البشري ليحل محله وجود شبه ميكانيكي.. فإذا كانت الأرض كلها لم تعد تعني شيئاً أكثر من كونها كوكب من بين هذه الكواكب فهل إنسان ما ولو كان عالماً سيعني أكثر من ذرة غبار في فضاء ما؟؟!!

وكنت أعيش كالمسحور أو المخطوف الى عالم آخر بل هو بالفعل عالم آخر.. لا أعلم كيف سيكون.. ولم يكن في رأسي توقع له أكثر مما شاهدته في الصور والأفلام التي تبثها الرحلات الاستكشافية غير المأهولة الى المريخ. لم أهتم كثيراً بحواراتي مع باقي الرواد ولو أنها فرصة نادرة

وثمينة لي لأتعرف اليهم أكثر وأكتسب من خبرتهم المزيد. بل كنت أستبق بروحي ومشاعري موعد هبوط المركبة، وأبحر في الخيال حتى أصبحت لا أطيق أن أسمع اتصالاتهم مع الأرض.. ذلك الكوكب الأزرق الذي كان يبدو من الفضاء البعيد صغيراً ولكنه مبهر ورائع الجمال.

كنت أقضي أغلب وقتي في قراءة كل ما يتعلق بكوكب المريخ الذي نتجه إليه في سباق مع الزمن وسرعة الضوء حتى أنني قرأت كل التقارير التي حملتها المركبة معها، واطلعت على جميع المعادلات الرياضية والمسائل الفيزيائية والكيميائية، ومراحل المهمة وخطوات الهبوط والعودة. وكان الوقت مع ثقل الانتظار واللهفة الى الوصول.. كان يهرب بسرعة رغم طول الرحلة الذي امتد لأسابيع بل لشهور. لم يعد إحساسي بالزمن إحساساً أرضياً بل أصبح زمناً من نوع خاص فضائياً ربما.. نعبر من خلال دقائقه وساعاته الى طرف آخر من الكون.

عشت مع نفسي في ذلك السفر الاستثنائي كثيراً.. أتذكر كل تفاصيل حياتي.. أبي الذي لم يغب عن ذاكرتي لحظة واحدة.. وأمي تلك الرائعة الحبيبة.. وأختي دالية عصفورة البيت.. مدرستي ورفاقي.. وتجربة القطب.. ودراستي في

معهد الفضاء.. لكن أكثرها إلحاحاً عليّ كانت تلك الرحلة الوهمية الى المريخ التي قمنا بها أنا وسامر دون أن أدري أنها ستكون النواة لما يجري معي الآن.. وأنا مع باقي الرواد نعيش في شبه علبة مقفلة تسبح في أرجاء الكون، وتسافر عبر الزمن نحو المجهول ونحن مشدودون فيها الى الأحزمة والأنابيب والحبال، ولا نعرف ما المفاجآت التي ستقابلنا إذا ما وصلنا. وهكذا مرت المرحلة الأولى لمهمتنا.

لم يبق لهبوط المركبة سوى ساعات قليلة انهمك فيها الرواد الثلاثة بالإعداد له لأنه لا يقل أهمية وخطورة عن لحظات الإنطلاق. تكومت على نفسي في زاويتي وأخذت أصلي كي يمر الأمر بسلام.. لم أكن خائفاً بل إنني أثق بالعلم وبالإنسان.. ولم أعد أستطيع أن أفكر بشيء سوى اللحظات القادمة، وتحول الرواد الى أشبه ما يكونون بروبوتات حقيقية لا يتحرك من أجسادهم سوى الأيدي، والعيون، والعقول طبعاً.

وعند اللحظة الحاسمة التي اقتربت فيها المركبة من جو المريخ أخذت سرعتها الهائلة تتناقص تدريجياً، وأخذ الرواد يضعون إحداثيات المنطقة التي ستنزل فوقها المركبة على وجه الدقة.

لم يبق سوى أربع دقائق فقط للرسو، وكانت المركبة قد اخترقت غلافاً رقيقاً للغاية هو الغلاف الخارجي للمريخ فتراجعت سرعتها بشكل ملحوظ، وبرز منها درع للحماية من الحرارة الرهيبة التي سيولدها أول احتكاك لها مع ذلك الغلاف حتى لا يتآكل السطح الخارجي للمركبة.

وقبل ثوانٍ من الارتطام بسطح المريخ بدأت أشياء عجيبة تبرز من حواف المركبة، وظهرت مجموعة من الأكياس الضخمة تحيط بها، وتنتفخ كي تمتص الصدمة، وحتى لا تتحول المركبة الى كرة طاولة تقفز فوق أرض الكوكب. وانفتحت المظلة الضخمة التي تدلت منها المركبة وهي تهبط ببطء بينما سارع جهاز المسح الراداري باستكشاف المكان مثل أي عين فضولية تستبق الرؤية لتهيئة الحدث.

وعند جزء من الثانية صفر لحظة الملامسة الخطيرة تلاشت سرعة المركبة وقفزت الأكياس مرات عدة حتى استوت المركبة بشكل نهائي.

مكثتُ ساكناً في مكاني لم أنطق بحرف.. وما هي إلا لحظات حتى انفتحت الأبواب وبدت المركبة كزهرة خرافية تفتح أوراقها لتستقبل المجهول.

وانطلقت عربة صغيرة تشبه ألعاب الأطفال تحمل في رأسها كاميرا متطورة لتقوم بمهمة مصور فوتوغرافي بارع الأنامل.

جلس كل واحد منا وراء شاشته الخاصة به نراقب الصور التي تبثها العربة الفضائية، ونقرأ كل ما يكتب بجانبها من ملاحظات وتعليمات، ومضت قرابة أربع ساعات ونحن على هذه الحال حتى أصبح بإمكاننا الخروج من القمّرة لأول مرة. ارتدينا لباس الفضاء الواقي وهي بدلات حديثة منفوخة بالأكسجين النقي لتساعدنا على التلاؤم مع الجو الجديد فتمدنا بهواء التنفس، وتحمي أجسادنا من زوال الضغط المفاجئ، ودرجات الحرارة الرهيبة التي تنتظرنا. وضعنا الخوذات الواقية، وفتح باب صغير في القمّرة وخرج اثنان من الرواد بينما لبثنا أنا والرائد الآخر بضع دقائق ريثما وصلتنا إشارة منهما كي نلحق بهما.

خرج الرائد وأنا من خلفه.. هل أنا فعلاً فوق كوكب المريخ؟؟.. لم أصدق أن قدمي تطأ أرضه.. خفق قلبي بين أضلعي كعصفور صغير.. هاهو الحلم يصبح حقيقة إذن.. فهل لطموح الإنسان أي إنسان من حدود؟

انضممنا الى الرائدين الآخرين بينما كانت العربة الفضائية تعود نحونا مسرعة وكأنها كلب وفيّ يبحث عن حماية صاحبه. أخذ الرواد الثلاثة يتفحصون أرجاء المكان ويجمعون عينات من التربة والصخور وكأنهم في مهمة قد اعتادوا عليها أو أنهم قد زاروا هذا الكوكب قبلاً، والصمت سيد بيننا فلا أحد يتكلم أو يتحدث مع الآخر.

الروعة أكبر من أن توصف.. فالأرض غير الأرض.. والسماء غير السماء.. فاجأني لون أرض الكوكب ما إن صافحته عيناي رغم أن تسميته بالكوكب الأحمر تعلن عن لونه.. لكنني وجدته أحمر غاضباً يصبغ أجواءه بتدرجات لونية كأنها الشفق. سرت فوق روعة ذاك اللون المتمرد خفيفاً منطلقاً كأنني أطير.. بل فعلاً كنت أطير فما من جاذبية أو شيء يقيدني سوى هذه البدلة البيضاء التي أغوص فيها.. ليتني أتحرر منها ولكن كيف وشروط بيئة الكوكب ليست مهيأة لاستقبال كائنات بشرية؟

ابتعدت قليلاً عن المجموعة تبهرني رغبة الاكتشاف، وتستحوذ عليّ أجواء الكوكب الغريبة بكل ما فيها من صخور وجبال وتجاويف.. وإذا بصوت أحد الرواد يأتي إليّ عبر جهاز إلكتروني مثبت في طرف الخوذة:

- فارس إياك أن تبتعد عنا.. دقائق ويعود الفريق الى القمّرة.. انتهى الوقت المخصص لمرحلة الاكتشاف الأولى.

جاء صوته حاداً وغريباً، وكأنه يجرح الصمت الأزلي لهذا الكوكب منذ ملايين بل مليارات السنين.. وكان لفظ اسمي (فارس) هو أول أبجدية ينطقها إنسان هنا.. فهل الإنسان هو فارس الفضاء؟

انصعت لأوامره مثل تلميذ مطيع، وبالفعل.. خلال دقائق معدودة كان الجميع وراء أجهزتهم داخل المركبة من جديد، وفُتحت الشاشات باتصال أرضي ينقل بالصوت والصورة كل خطوات المرحلة الأولى من هبوط المركبة.

كنت مذهولاً أمام تلك الشاشات التي أرى فيها أهل كوكب الأرض ويرونني.. أتحدث اليهم ويتحدثون إليّ كما لو أنهم أناس حقيقيون أمامي.. وأنا الذي فتحت عيني على شاشات الكمبيوتر، وأجهزة الاتصال، وولدت في زمن الأقمار

الصناعية التي تجوب الفضاء. كنت قد نسيت أن ملايين البشر من سكان الأرض.. بل كل مَنْ على الأرض كان يرصد هبوطنا وبداية اكتشافنا للكوكب بقلب خافق، وأمل كبير بهذه الخطوة الإنسانية الجبارة.

لم تعد تهمني الأصوات القادمة من عالم الإنسان بقدر ما كنت مهتماً بتنفيذ المرحلة الثانية للهبوط فقد جاء الأمر من المحطة الأرضية يقول: «ليبدأ الرواد الآن بضغط الأزرار لإقامة المستعمرة».

سكنت الأصابع فوق الأزرار والمفاتيح تديرها، وأنا أراقب مهارة الرواد في تحريكها.. كيف يحفظون مهمة كل واحد منها؟ بل كيف يميزون بينها وهي تتشابه مع بعضها بعضاً؟.. ولكن هل هذا هو الشيء الوحيد الذي يثير فضولي؟.. لا بل إن كل ما أشاهده يثير الفضول والدهشة.

ومن بين تلك الأزرار واحد أحمر كبير ما إن ضُغط عليه حتى برزت أمامنا شاشة كبيرة راحت تنقل إلينا صور الأبواب الداخلية والخارجية للمركبة وهي تنفتح آلياً، وتخرج منها معدات وتجهيزات، والرواد يتحكمون بها عن بعد بواسطة أجهزة إلكترونية خاصة حتى تجمعت تلك الأشياء بما يشبه بناءً مؤلفاً من أربعة أقسام، أصطف واحدها قرب الآخر وكأن

يد مهندس خفي تقوم بضبطها بدقة ولصقها بعضها ببعض، وهي مزودة بكل لوازم الحياة من غذاء، وماء، وهواء.

تجرأت وكسرت حدة الصمت التي سادت بيننا لساعات، وسألت:

ـ ما هذه المنشآت.. ولماذا تقيمونها؟

أجاب رائد وهو يدفع إلي بأحد المخططات:

ـ لعلك نسيت أنها المستعمرة التي سنقيم بها.

تأملت المخطط كأنني أراه لأول مرة وكنت قد عدت اليه مراراً أثناء السفر الطويل. قلت:

ـ بل تذكرت الآن.. ولكن أين القبة السماوية؟

لم أسمع منه جواباً بل ضغط على زر في طرف اللوحة أمامه فنقلت الشاشة الكبيرة صورة ألواح زجاجية من نوع خاص جداً ومتطور أخذت تتجمع بكثافة، ثم انفردت تلقائياً فوق مساحة كبيرة كطائر عملاق يفرد جناحيه لأقصى مدى حتى غطت بناء المستعمرة وما حولها لمسافات. وقفت أراقب المشهد وهو يتشكل أمامي ويبعث الرهبة في نفسي.. هل هو كوكب يهبط فوق كوكب أم أنه طموح الإنسان؟

بدأت أنابيب ضخمة بشفط غاز ثاني أوكسيد الكربون من جو المنشأة لتضخ مكانه غاز الأكسجين النقي، وأخذت الأجهزة الحرارية تعمل بطاقة قصوى لتقهر درجات الحرارة العالية جداً نهاراً، والمتدنية لأقصى حد ليلاً، وكذلك أجهزة تعديل الضغط الجوي مهيئة بذلك بيئة تصلح لنعيش ضمنها بشروط أجسادنا البشرية.

مضت ساعات قبل أن نغادر مركبتنا لندخل الى عالم المريخ فعلاً. عندما وقفت تحت تلك القبة السماوية الهائلة أصابني نوع من الخدر اللذيذ فروعة المشهد تفوق الوصف.. سماء مريخية تسطع بأشعة الشمس المبهرة ومن تحتها سقف زجاجي كأنه سماء دنيا تتكسر فوقه الأشعة الكونية، وتتلامع حول أطرافه ألوان أكاد لا أعرفها من قبل.

الليل المريخي كان لم يحل بعد، وكنت مع باقي الرواد نتجول في أرجاء المستعمرة غير مصدقين ونحن ننظر الى أجسادنا التي تحررت من بدلات الفضاء، إذ لم يكن بمقدورنا أن نتحرر منها لولا هذا الجو الواقي الذي أقمناه، فلا حرارة عالية تلسعنا، ولا غاز قاتل نتنفسه، ولا أشعة كونية تصعقنا.

وزع قائد الرحلة علينا نظارات واقية وهو يعطينا التعليمات، وقال:

ـ سوف نقضي أغلب أوقاتنا في هذه المستعمرة وتحت القبة الواقية، ندرس التربة والصخور مما حولنا بينما نطلق العربة الاستكشافية في رحاب المريخ، ونراقب مسارها عبر الشاشات، وبعد ذلك ننطلق في مغامرتنا فوق تضاريس الكوكب.. أما هذه النظارات فيجب أن يرتديها كل من يريد أن يتأمل السماء في النهار كي لا تتأثر أعيننا بأي من الأشعة فوق البنفسجية أو غيرها لو حصل أي تسرب لها.

النهار هنا طويل وهو ضعف مدته على الأرض.. والسنة المريخية تعادل سنتين أرضيتين، فكرت في هذا ورحت أسال:

ـ لو قضينا مدة عام هنا فهل سنتقدم في العمر عاماً أم عامين؟

ضحك الجميع رغم أنهم لم يهزؤوا بسؤالي، وقال أحدهم:

ـ سوف يدرس العلماء هذا الأمر على الخلايا الحية فلربما طالت أعمارنا فوق هذا الكوكب، ورحنا في المستقبل نرسل أولادنا ومرضانا اليه ليعيشوا أكثر.

نظر كبير الرواد نحو السماء، وقال:

ـ استعدوا لمشاهدة الليل المريخي للمرة الأولى.. ها هو بدأ يحل.

وبالفعل أخذ ظلام قاتم يلف المكان وكأنه رداء أسود كثيف. سارع الفريق لتفقد الأجهزة الحرارية ولتهيئة الأنوار الكاشفة لتضيء المكان ولكن ليس قبل أن نشهد ظلمة الليل الجديد.

استولى ظلام حالك على الكون من حولنا.. كان مهيباً ومخيفاً وصامتاً.. وما أن سطعت أضواء أجهزتنا حتى شعرنا وكأنها الروح ترتد إلينا. وبدأت المؤشرات الحرارية تتذبذب بسرعة لتعدل جو المستعمرة فقد كانت الحرارة في الخارج تنخفض بسرعة لمئات الدرجات تحت الصفر بدا معها المريخ كجثة باردة تغرق في الظلام. وظهرت على شاشة الكمبيوتر أول نشرة جوية للمريخ تقول: «غداً الطقس مشمس وبارد».

لمع من بعيد في السماء ضوء هادئ، فصرخت:

ـ انظروا.. انظروا هاهو قمر المريخ يظهر.. هل هو القمر الذي أسموه (فوبوس) أم أنه أخوه (ديموس)؟

نظر كبير الرواد ملياً ثم قال:

ـ هذا هو (فوبوس) لأنه يشرق من الغرب، وهاهو يتجه نحو الشرق ليغيب فيه، ومن ثم يعود للظهور بعد سبع ساعات ونصف.

يا له من قمر صغير ولطيف كأنه ضوء في قمة عمود نور، يمد رأسه متفقداً كوكبه العزيز كل بضع ساعات.

❋ ❋ ❋

مضت أيام مريخية وأخرى أرضية عديدة قبل أن نخرج لأول مرة الى أجواء المريخ الحقيقية.. كنا قد درسنا المعلومات التي تبثها لنا العربة الفضائية، وعرفنا تضاريس الكوكب وأقسامه، وحددنا المنطقة التي سنتوجه إليها. ارتدينا البدلات الفضائية، وبنظرة سريعة قبل أن ننطلق لشاشة الأرصاد الجوية كنا نقرأ: « الطقس اليوم مشمس وبارد، والسماء صافية تشوبها سحب غير كثيفة من الغبار مع رياح جنوبية شرقية

خفيفة، ودرجة الحرارة (٦٠) مئوية تحت الصفر في الساعة الثامنة والربع بتوقيت المريخ».

ارتسمت البسمات على الوجوه متحدية الدرجات المنخفضة للحرارة، وانطلقنا بكل ثقة وإصرار الى مهمتنا.

❋ ❋ ❋

أول ما قابلنا في طريقنا حفرة هائلة لا يقل قطرها عن عشرة أميال، فقفزت الى ذاكرتي فوراً حفرة (هاوتون) في القطب الشمالي للكرة الأرضية.. يا إلهي كأنه المشهد ذاته يتكرر كم هما متشابهان. فأخذت أسير فوق تضاريس الحفرة بحذر كما فعلت في (هاوتون) وكأنني أستفيد من تجربة سابقة لي. سرنا مبتعدين عن تلك الحفرة وأنا مثبت نظري في الأرض تحت أقدامي، وأستمع الى الرواد وهم يتحدثون مع بعضهم عبر ميكروفونات مثبتة في أطراف خوذهم، وإذا بصوت كبير الرواد يصيح:

ـ هاهي.. هاهي الصخرة أمامنا.

تنبهت ورفعت رأسي وما لبثت أن شهقت من مفاجأتي بجسم ضخم داكن اللون يقف أمامي، فلم أتصوره إلا وحشاً يريد أن يبتلعني، صرخت بصوتٍ عالٍ:

ـ الدب.. الدب.. الدب القطبي.. ابتعدوا عنه.

وجاءني صوت قائد الفريق يقول:

ـ ما بك يا فارس.. هذه ليست إلا صخرة!!

فتحت عيني جيداً، ووقفت أنظر إليها من جديد، وقلت:

ـ آه.. هذا صحيح.. لماذا توهمتها ذلك الوحش القطبي؟!

أضفت معللاً وقد أصابني شيء من الخجل:

ـ لعل تشابه المكانين (هاوتون) والمريخ جعلني أظن أنه توجد هنا دببة أيضاً.

ضحك الجميع وكأنني أطلقت نكتة خففت من جدية الموقف، فرد أحدهم:

ـ سنسميها إذن صخرة الدب.

أجاب آخر:

ـ تسمية موفقة مادامت هذه هي الصخرة الأكبر فوق هذا الكوكب حسبما يقول العلماء.. سنخبرهم بتسميتها حين عودتنا.

تابع الرواد الثلاثة سيرهم وأنا لا أزال أتأمل صخرة الدب هذه. للصخرة فعلاً شكل الدب القطبي الذي وقف أمامي على قائمتيه الخلفيتين.. وكأنما رأيت بقعاً مضيئة كالعيون تتلصص علي من خلف الصخرة وما تلبث أن تختفي. شعرت بشيء من القلق ولا أسميه خوفاً فأسرعت في خطواتي متجاهلاً تلك العيون المضيئة لأنضم الى باقي الفريق.

كانت الأرض التي نسير فوقها ملأى بالحفر الناجمة عن سقوط النيازك، وبما يشبه مجاري أنهار مُغرقة في القدم، وأخاديد عميقة وكأن تيارات مياه قوية حفرتها على وجه الكوكب.

غرقت في أفكاري مرة أخرى وأنا أتبع أفراد الفريق وأتصور كوكب المريخ يستحم بطوفان لا ينتهي.. وأفقت من شرودي هذه المرة على مفاجأة لم أتوقعها بحال من الأحوال.. كان مشهداً يفوق المألوف في كوكب غير مأهول بأي حياة ذكية.. ورحت أغمض عيني وأفتحهما لأتأكد أن ما أراه حقيقة لا سراباً.. حيث ظهرت من الطرف الشمالي ارتفاعات تشبه الأهرامات المصرية والى جانبها أبو الهول!!!.. تسمرت في مكاني مذهولاً.. لاشك أنني أهلوس.. إنها تهيؤات لا أكثر.. عادت الى رأسي الأوهام مرة أخرى؟.. مشيت بضع خطوات

ثم التفتُّ من جديد فرأيت المشهد ذاته.. لا ليست تهيؤات إنها الأهرامات التي أعرفها جيداً.. وها هو وجه أبي الهول يقف أمامها كمثيله في (الجيزة) بمصر.

تلفتُ حولي فلم أر أحداً من الفريق، حاولت أن أناديهم فلم أستطع كان صوتي قد غاب عني من هول المفاجأة.. عاد رئيس الفريق ينبهني مؤنباً وسمعت صوته يقول:

ـ فارس أين أنت؟.. لماذا تبتعد عنا؟

وعند ذلك خرج صوتي مرتجفاً:

ـ أنا.. أنا في الطرف الشمالي.. أسرعوا باتجاهي.. هنا شيء خطير.

اضطرب أفراد الفريق عندما قلت عبارتي الأخيرة، ورحت أسمع أصواتهم وهم يركضون باتجاهي. وعندما وصلوا إليّ وكنت أشير بيدي نحو الأهرامات وقفوا ثلاثتهم وكأن صاعقة نزلت عليهم، وراح صوتي المرتجف يرتفع من جديد:

ـ أليست هذه الأهرامات المصرية ذاتها؟.. ما الذي أتى بها الى هنا؟.. بل من الذي أقامها؟.. هل توجد على الكوكب حياة عاقلة يتميز أصحابها بالذكاء وهذه هي آثارهم؟

هذه المرة حل الخوف مكان الضحك.. نظرت الى وجه رئيس الفريق فرأيته مصفراً والهلع بادٍ عليه، وكذلك الرائدان الآخران وهما يرتعشان.

تمالك رئيس الفريق نفسه، وضغط على آلة التصوير ليلتقط ما أمكن من الصور، وكأن موجة كهرباء سرت في أجسادنا، ثم أمرنا بصوت متهدج:

ـ لننصرف في الحال.. هيا بسرعة الى المستعمرة.

وأخذنا نقطع المسافة بأقصى ما نملك من طاقة وكأننا نفر من أشباح مجهولة تطاردنا حتى وصلنا الى مقرنا مقطوعي الأنفاس. وعلى الفور توجه أحد الرواد الى جهاز الطوارىء فأدار الأزرار ليولد حول مستعمرتنا طاقة كهربائية كأنها درع حماية يفصل بيننا وبين العالم الخارجي.

تلك الليلة كانت أطول ليلة في حياتنا.. ألا يكفي أن الليل المريخي طويل بل ضعف مثيله على كوكب الأرض؟

لم يغمض لنا جفن والجميع منهمك بتحليل الصور والمعلومات لدينا، والاتصال مع الأرض في محاولة محمومة لحل لغز تلك الأهرامات.

وقبل أن يظهر النهار جاءت الإجابات من جهاز تحليل المعلومات ومن الأرض متوافقة تؤكد أن: «تلك الهياكل الضخمة التي تشبه الأهرامات ليست نوعاً من البناء ولكنها تكوينات جيولوجية تشكلت بفعل عوامل المناخ السائدة. أما الوجه الذي يشبه أبا الهول فقد جرى نحته بطريقة جيولوجية بطيئة استمرت ملايين السنيين، ولا وجود فوق كوكب المريخ لأي حياة من أي نوع».

تنفس الفريق الصعداء مع بداية نهار جديد، وعادت أزرار درع الحماية الكهربي الى وضع عدم التشغيل، وكان لابد للجميع أن يأخذوا وقتاً للنوم والراحة. أما أنا فظل فكري مشغولاً ولازال في قلبي شك.. إذ كيف يمكن للعوامل الجيولوجية أن تنحت أشياء بهذه الدقة ولو عبر ملايين السنين!!

بقي لانتهاء الرحلة يومان وقد شارف الفريق على إنهاء مهمته الاستكشافية بشكل كامل، وبدأت التحضيرات لرحلة العودة، وحدث ما لا يُتوقع، إذ كان من المقرر أن يخرج الفريق في آخر طلعة له خارج المستعمرة عندما أعلن جهاز الرصد الجوي عن قدوم عاصفة مفاجئة.

وعادت الشاشات تنبض في أرجاء المستعمرة بتحذير يأتي من علماء الأرض بضرورة اتخاذ كل التدابير الوقائية، فالعواصف المريخية خطيرة جداً إذ تزمجر، وهي قد تتسع لتشمل مساحات واسعة من الكوكب إن لم يكن الكوكب بأسره، ولا تخمد إلا بعد فترات طويلة قد تمتد لعدة أشهر. أما الرياح التي تحمل الرمال فتصل سرعتها لآلاف الأميال في الساعة.

ولكن جهاز الرصد الجوي بث في نشرته التالية اقتراب هبوب العاصفة وأنها عاصفة خفيفة وليست من النوع المدمر ممتد الأجل.

تلك العبارات بدت لنا أجمل من أي أشعار يمكن أن نقرأها، وأحلى من أي لحن سيمفوني قد نسمعه لأننا لن نضيع في عاصفة هوجاء قد تبددنا في أطراف الكون.

ظلت رغبة اقتحام المجهول تراودني إذ كان قلبي ما يزال معلقاً عند (صخرة الدب) وعند تلك الأهرامات. لم أتصور فكرة فراق الكوكب وقد ألفته رغم وحشته الفظيعة، وتمنيت لو أنني أبقى ولو وحيداً فوقه. شعرت بدافع قوي لأن أخرج وأذهب لألقي نظرة ثانية الى حيث الصخرة الكبيرة مادام توقيت العاصفة لم يحن بعد وهناك ساعات تفصلنا عنه، فلأغتنم فرصتي إذن.

اخترت وقتاً كان فيه الرواد مشغولين، وارتديت البدلة الفضائية، وتسللت بهدوء خارج المستعمرة دون أن يدري بي أحد.. أعرف وجهتي وأحفظ الطريق نحوها. سرت مسرعاً وسط الهدوء الشديد الذي يلف الكوكب قبل هبوب العاصفة حتى وصلت.. كان شيء مجهول يشدني نحو تلك الصخرة العظيمة. وقفت أمامها متهيباً، ورحت أتأملها وأتحدث إليها كما لو أنني أستنطقها لتخبرني عن ماضي هذا الكوكب الغامض، وتجيب عن تساؤلاتي حوله، بل أن تكشف لي كل

الأسرار التي تختفي فيه. ألقيت أسئلتي عندها وكأنني أتحرر من شيء ثقيل كنت أحمله.

حاولت أن أبتعد عن الصخرة باتجاه الأهرامات فمازالت قناعتي بشأنها لم تكتمل بعد، ومازلت أراها لغزاً محيراً.

سرت إليها بضع أمتار، فلاحت لي من بعيد جداً وقد بدت أكثر ضخامة وغموضاً. تحمست أن أتابع وإذا بعاصفة من تراب أحمر غاضب تتقدم نحوها، وما لبثت أن لفتها بدوامة ممتدة وكأنها تريدني أن أبقى بعيداً كي تظل سراً غامضاً. تخليت عن جرأتي وحماستي وأخذ الخوف يتسرب إليّ فها هي العاصفة قد بدأت تضرب الكوكب من أطرافه الشمالية البعيدة، ورأيت في الطرف المقابل للأهرامات جبلاً رهيباً يشق السماء بارتفاعه الذي لا مثيل له فتغيب قمته فيها.

شهقت مذهولاً.. هل كان هذا الجبل قائماً فعلاً عندما خرجت مع باقي الرواد في المرة السابقة.. أم أن مفاجأة الأهرامات قد أذهلتنا آنذاك فلم نلحظه؟.. وتذكرت أنني قرأت عن جبل يصعد فوق سطح المريخ لمئات الكيلومترات.. لابد أنه هو.. تراجعت خطواتي الى الوراء.. فسمعت ما يشبه همساً

خفيفاً يناديني باسمي.. كان الهمس يأتيني من ناحية الصخرة. عدت نحوها كالمسحور وإذا بتلك العيون المضيئة التي لم يرها سواي تظهر أمامي ثم تختفي. لبثت منتظراً بكثير من القلق الحذر فعادت تنبض من جديد، وهي تتكاثر وتقترب مني ثم تدور حولي كأنني نقطة في مركز دائرة وأنا أراقبها بفضول شديد.. وبدأت ألف حول نفسي حتى كدت أصاب بالدوار أم أنني أصبت به فعلاً؟..

مضت برهة من الزمن شعرت معها أنني غبت عن وعيي، أو دخلت في حلم رأيت فيه تلك العيون تتحول الى يراعات من نور وهي توحي إليّ أن أبقى فوق هذا الكوكب: «ابق.. ولا تعد الى الأرض». وراح عقلي يرسل أسئلة وأجوبة كثيرة: كيف أبقى والرحلة انتهت؟.. وهل سأظل وحيداً فوق كوكب لا حياة فيه؟.. سوف أشعر بالوحشة والخوف.. لا.. لا أستطيع فبقائي يتطلب أموالاً كثيرة وأنا لا أملك هذه الأموال.. لقد دفعت أغلب ثروتي كي أصل الى هنا.

سرت كمن يسير في نومه وعادت بي قدماي الى المستعمرة، ودخلتها وكأنني في حالة نوم مغناطيسي.

غضب مني رئيس الفريق إذ كيف أتجرأ وأخرج دون إذن منه لاسيما وأن العاصفة بدأت تهب نحونا قادمة من شمال الكوكب، وكانت أقسى مما توقعنا لكنها مرت بسلام مع اتخاذ جميع التدابير الوقائية وأقصاها.

قال رئيس الفريق وكأنه قد خرج للتو من معركة حامية:

ـ لقد تسببت العاصفة بتشويش بعض الأجهزة الإلكترونية والرادارية، ولذلك سوف تتأخر عودتنا لأيام ريثما يتم إصلاح الأجهزة.

لا أعلم كيف التمعت في ذهني الأفكار، فوقفت أمام الفريق أعلن تمردي وأنني لن أعود معهم في مركبتهم الى الأرض. نظر إليّ رئيس الفريق وهو في غاية الدهشة مما يسمع إذ كيف لي أن أبقى، وكيف يخطر لي ذلك فهذا أمر غير وارد على الإطلاق وهو محسوم سلفاً. ولكنني بقيت مصرّاً على موقفي وقد شُحنت بقوة غريبة، ورحت أؤكد أنني لن أعود بل سأبقى.

وجرت الاتصالات مع المحطة الأرضية تخبر النبأ الغريب لتمردي على قواعد وشروط الرحلة.. وأجهزة الاتصال تنقل

أصوات العلماء من الأرض وهي تأتي زاجرة ناهية تأمرني بالعودة تارة، ولطيفة تحاول إقناعي بالتخلي عن تلك الفكرة الجنونية تارة أخرى.

بدأ إصراري على البقاء يضعف.. وأصبحت أكثر هدوءاً وتجاوباً مع تعليمات العلماء. وفجأة اندفعت باتجاه الأطراف الزجاجية للمستعمرة وكأن قوة جذب كبيرة تسحبني حتى رأيت مرة أخرى تلك اليراعات المضيئة تنبض من وراء الزجاج وكأنها تخاطب عقلي عن طريق التخاطر بأن أبقى: «ابق.. ولسوف نأتيك بثروة لا حدود لها.. ابق.. ولن تعرف الآن ما معنى ثرائك إلا عندما تسافر السفينة من دونك».

عدت نحو الرواد الثلاثة وقد أصابهم التوتر والقلق وحالة من التشويش بسببي.. ووقفت تحت مركز القبة الزجاجية وقد استحوذت على تفكيري فكرة الاتصال بشبكة المعلومات عبر المحطة الأرضية لأجيب عن كل ما يخطر على بال سكان الأرض من أسئلة حول عالم الكوكب الأحمر، عالم المريخ الغاضب، مقابل مبالغ من المال توضع في حساب مصرفي خاص بي.

استفز الجميع واستُنفروا أمام طلبي الذي بدا غريباً جداً وكأن شريكاً مجهولاً أوحى به إليّ. ولم يكن أمام العلماء والمحطة الأرضية إلا أن يستجيبوا الى رغبتي التي تحولت الى قرار لا رجوع عنه.

طوال المدة التي كان فيها الرواد يعملون جاهدين لإصلاح أجهزة المركبة كنت أجلس وراء الشاشة الضخمة داخل المستعمرة وأنا أبعث بإجابات علمية دقيقة حول كل سؤال أتلقاه من جهات الأرض الأربع.. واليراعات الجهنمية تنبض من حولي وفي أعماق تفكيري. إجاباتي كانت مبهرة، وعميقة، وصحيحة مما حيّر العلماء، وأثار سؤال استفهام كبير عن مصادرها حتى أنا نفسي كنت أفاجأ: من أين لي بهذه المعلومات المتدفقة الغزيرة والفريدة؟!!!

وراحت ثروتي تتضاعف فوق الأرض بشكل هائل، فالجميع مستعد لأن يدفع مبلغاً من المال مهما كان مقابل العثور على إجابة لسؤال محيّر.

وقبل الإعداد لانطلاق المركبة نحو الأرض ثانية في رحلة العودة، بعد ذلك الهبوط المثير فوق كوكب المريخ، حاول الرواد وجماعة الأرض من جديد إقناعي بالعودة.

بقيت متجاهلاً كل ما يدور من حوارات بين الرواد، وأيضاً تلك التي تأتي من الأرض كي أعدل عن قراري وأتوجه بكل انتظام الى المركبة العائدة.. وأنا أخترق شبكة المعلومات بحريتي عبر المحطة الأرضية، ولا أحد يجرؤ أن يوقفني خوفاً من ازدياد تمردي.

وبينما كنت أستعرض صفحات الإنترنيت ظهرت أمامي عناوين من صحف تحمل عبارات مختلفة:

«سائح الفضاء يرفض العودة»..

«أول زائر للمريخ يصرّ على البقاء فوق الكوكب»..

«ثروة سائح الفضاء تتضاعف بشكل خيالي»..

«فتى الفضاء يصبح أغنى فتى في العالم»..

علت ضحكاتي وأنا أردد: أغنى فتى في العالم.. أصبحت الفتى الأغنى.

نظر إليّ الرواد باستنكار فلم أهتم.. عقدت يديّ وراء رأسي، وأسندت ظهري في مقعدي، وعيناي مثبتتان على صفحات الإنترنيت وهي تعرض عشرات العناوين للصحف.. وتذكرت أمي وأختي، ترى هل قرأتا ما تكتبه الصحف عني؟.. وهل هما حزينتان لأنني لا أريد أن أعود الى عالمهما؟.. وتذكرت صديقي سامر وكيف كنت أحدثه عن الثروة التي قد لا تكون بالمال، وتساءلت هل كل ثروتي الآن هي تلك الأوراق النقدية فقط؟.. وقبل أن أفكر ماذا سأفعل بها وهل أريدها حقاً لفت نظري من بين السطور التي تظهر أمامي عنوان يقول: «الرحلة الفضائية الى المريخ تتأخر في عودتها بسبب فتى أحمق يعيق مهمتها».

شعرت بالغضب وأنا اقرأ تلك العبارات.. فهل أنا فعلاً أعيق مهمة الرحلة؟.. ولكنني بالتأكيد لست أحمق.

وفجأة جاء صوت أعرفه عبر الإذاعة الأرضية، وما لبثت صورة صاحبها أن ظهرت على الشاشة الكبيرة. كان صديقي الدكتور (سهيل) وهو يتحدث إليّ ويدعوني أن أتخلى عن قراري في التمرد على رحلة العودة.

شعرت أنني أصبحت محاصراً.. وأخذت مقاومتي تضعف بعد أن رأيت وجه الدكتور (سهيل) يأتيني عبر أمواج الفضاء.. وبدأت أبحث عن تلك اليراعات المضيئة في كل مكان من أرجاء المستعمرة فلا أجدها. وجاءني صوت رئيس الفريق جافاً متوتراً يقول:

- فارس.. ستعود مركبتنا بعد تسع ساعات من الآن أي مع ظهور أول خيوط الشمس.

قال تلك الكلمات ولم يضف شيئاً آخر.

دخلت الغرفة المخصصة لي، وألقيت بنفسي متعباً فوق فراش مطاطي منفوخ بالهواء، وفضلت أن تبقى الأضواء منطفئة. أغمضت عيني وأنا أفكر في مصيري لو بقيت فوق كوكب المريخ، وعندما فتحت عيني من جديد رأيت غرفتي مضاءة بعشرات بل بمئات العيون وهي تنبض في أنحائها بإيقاع متسارع وكأنها تنذر بأمر ما. نهضت من مكاني ومددت يدي أريد أن ألمس واحدة منها فشعرت بحرارة من نوع غريب تلسعني.. واقتربت تلك الأجسام المضيئة من وجهي فنظرت إليها بعينين متسعتين.. يا الله.. ما هذا الذي أراه أمامي.. إنها

تشبه وجوهاً صغيرة جداً بملامح طفولية تحدق بي وتبتسم لي.. ترى هل كانت لها تلك الوجوه من قبل أم أن لها قدرة على التحول من شكل الى آخر؟؟!! لاشك أنها كذلك.. ألم تكن كاليراعات في المرة السابقة، وكالعيون في مرة قبلها؟

تحركت مشاعري بالعاطفة نحو تلك الوجوه الصغيرة، وأشفقت عليها.. ترى هل هي كائنات مسكينة.. أم هي مخلوقات مثلنا.. أم أنها طاقة متحولة؟

ضجت الأسئلة في رأسي: لماذا اختارتني دون غيري لتظهر لي؟ هل لأنني تعلقت بهذا الكوكب دون سواي؟.. أم لأنني أنسج من أحلامي الكثير؟

شعرت بالصداع.. وعاد قلبي يخفق بشدة وكأن موجة من الكهرباء تسري في جسدي كله.

ازداد نبض الوجوه المضيئة حتى تحول المكان من حولي الى كتلة من الأنوار الخافقة.. ورحت أسمع ذلك الهمس من جديد وكأنها ومضات خفية تخاطب عقلي: «عد الى كوكبك.. لا تجعلهم يغادرون من دونك.. لن تحتمل قسوة وحدتك هنا».. وقبل أن تقفز الى ذهني فكرة ارتباطي المجهول بهذا

الكوكب الغامض ارتسمت أمامي صور لمجموعات بشرية تسكن كوكب المريخ في منشآت فضائية مبتكرة الأشكال والألوان، ورأيت اللون الأخضر يغطي مساحات من أرض الكوكب، وأناساً وعلماء كثيرين بأردية بيضاء يعملون بانهماك في مخابر ومراكز أبحاث.

غابت تلك الصور من أمامي لأرى مكانها فضاء الكون الواسع تملؤه قوافل من سفن فضائية في خطوط متصلة تغادر الأرض نحو كواكب المجموعة الشمسية.

جاء صوت من أعماقي يسأل بمرارة: «هل تخليت فعلاً يا فارس عن عالمك الأرضي؟».. فأجبت نفسي بصدق وعفوية بالغتين: «لا أملك إلا الحب للكوكب الأزرق الجميل». ترى هل كانت هذه قناعاتي العميقة تعود الى ذاكرتي من جديد؟

وعلا الهمس من حولي: «سنزورك في أحلامك.. وعندما يتطور العلم فوق كوكبكم ستعرف عنا الكثير».

جذبتني طاقة يراعات النور تلك.. أم أنها العيون المضيئة.. أم الوجوه الخفية لا أدري.. وكأنها أيدٍ تسحبني نحو مركبتنا الفضائية.

كانت أرقام الساعة الإلكترونية تعلن موعد التحاق الرواد بالمركبة بعد أن انتهى كل شيء، وأغلقت صفحات ملف الرحلة لتبدأ العودة.

ركضت نحو شاشات الإتصال مع الأرض، ورحت أضرب على أزرار الكمبيوتر بسرعة، وخرج صوتي عالياً يعلن قرار عودتي.

سرت موجة من الارتياح العميق بين الرواد، وكذلك بين العلماء في المحطة الأرضية، وعلت صيحات المفاجأة والفرح، وأسرع الجميع بتهيئتي للانضمام الى الفريق المغادر.

ولا أدري هل كان رجوعاً أم حلماً.. هل كانت رحلة في ظلام الجهل أم إجازة في ضياء العلم؟.. كأنما كنت غائباً عن الوجود عندما عدت الى الوجود.. لكنه هذه المرة وجود أرضي وليس بالفضائي، وكأن حلم الطيران منذ أقدم الأزمان ارتبط بالإنسان، لكن الحلم إذ يتحقق عن طريق العلم يفتح آفاقاً لا حصر لها من الآمال تتمسك بها الأجيال لتغدو حقائق

ملموسة تشهد لها الحضارة الإنسانية بالتفوق الذي تمده القوى العلية قوى الرحمن وخير البشرية.

أما ثروات الأرض وأغلاها الذهب فهي المسخرة بالأمر الإلهي لازدهار الحياة على الأرض.. فهل سأبخل أنا بثروة هبطت عليّ من السماء الى الأرض أم سأجعلها في خدمة أهل الأرض؟

لن أفكر وحدي.. فكروا معي.. ماذا سأفعل بثروتي تلك؟

العلم يناديني.. وطموح الإنسان يرتفع بي الى الفضاء.. فهل الزمن الجديد هو زمن الجولات في السماء؟

أنا أفكر.. فكروا معي.. وسنقرر معاً.